مَستُورَة





كارِم عبد الغفار

دارْ دَوِّنْ

مســتورة

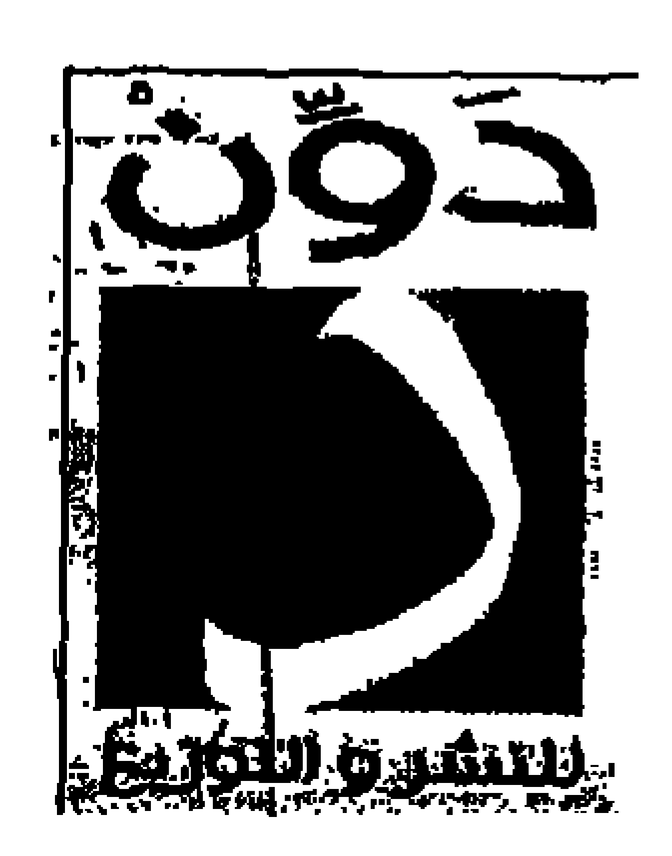
الطبعة الأولى: سبتمبر 2013
رقم الإيداع: 9981/ 2013
الترقيم الدولي: 0-16-6426-977-978
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: أحمد فرج

18 شارع محيي الدين أبو العز - الدقي
تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

مستورة

كارم عبد الغفار

رواية



دار دَوِّن للنشر والتوزيع

إهداء مضطر

إلى أبطال القصة الحقيقيين أينما حلُّوا أو ارتحلوا..

إلى مستورة.. إلى مستور، وإلى كل المساتير..

حملت حذاءه البالي في صرّة قماشية قديمة طوتها تحت إبطها.. سارت تدوس في الوحل وتنزع أقدامها كأنما تنزع نفسها من أحزانها.. تهيّئ كلمات لتواسي طفلها الموعود مثلها بالأحزان.. ها هي قد دنت من مدرسته التي تساقط طلاؤها واختلط ما بقي من الطلاء ببُقَع طينية من آثار المطر..

دفعت البوابة الحديدية بوهن.. ألقت همهمة على عم الشافعي البواب، فلم يأبه لها ولم يرد همهمتها بأحسن منها أو بمثلها.. دخلت حوش المدرسة.. وقع نظرها على الأطفال يلعبون في الحوش.. اختلط طويلهم بقصيرهم، غنيُّهم بفقيرهم، سعيدهم بتعيسهم.. توقَّفت.. تفحَّصت.. تردَّدت.. تراجعت.. لن تكسر قلبه.. يكفيه حاله في الدار.. لكنها تذكَّرت زوجها فتقدَّمت.. ارتفع في أذنيها مرح الأطفال وهرجهم.. أرهفت سمعها كمهرة تاه منها وليدها.. أصغت تريد أن تلتقط صوته من بين القطيع.. ثم استخدمت عينيها اللتين غطَّى الانكسار والضعف روعتهما وسحرهما..

ألقت بنظرة عامة على الحوش المدرسي.. ثم (زووم).. ثم رأته هناك وسطهم.. فهو بردائه الشبيه بقماشة الحذاء الذي تحت إبطها وبشرته البيضاء مميَّز عن سائر الأطفال، وإن كانت أحوال الجميع متشابهة.. تردَّدت ثانية.. زمَّت شفتيها تمنع دمعتها.. ثم عزمت ونادت:

- يوسف!

لم يسمعها.. فحمدت الله وفكَّرت في النكوص.. أوقفها خيال آخر.. فما باليد حيلة، فعاودت النداء بصوت أعلى:

- يوسف!

توقَّف يوسف فجأة عن اللعب.. التفت ناحية الصوت.. رآها.. لم يؤخذ.. فمجيئها كان متوقعًا.. نظر إلى حذاء أبيه في قدمه ثم رنا إلى اللفافة تحت إبطها.. بلع لعابه ليهيئ نفسه لامتصاص الحرج الذي سيحلُّ به الآن.. استنبهه أترابه:

- أمك بتناديك يا يوسف.

تحرَّك يوسف نحوها.. كتم غضبه على غير عادته.. ضغط على شفته العليا بصف أسنانه السفلي.. وصل إليها.. احتضنته بقوة، ولثمت خديه وجبينه كأنها لم تره منذ أيام.. لكنها عادتها معه..

دون أن ينطق نظر يوسف حوله يرى هل يرقبه الأطفال، فوجدهم يرقبونه والحمد لله.. ما باليد حيلة.. خلع الحذاء وأعطاه لأمه.. واستبدل الأدنى بالذي هو خير.. وأخذ حذاءه البالي من يدي أمه المتردِّدة.. وألقى باللفافة جانب السور..

- معلهش يا يوسف.

قالتها وقد خنقتها عبرة.. أخبرته أن العجوز أقسم عليها بالطلاق لو لم تعُدْ بالحذاء لـ..

- معلهش انت يا مستورة!

قالها ثم هرب من أمامها وشنق غيظه بحبل الكبرياء.. وغرق وسط ضحكات أقرانه الأشقياء..

-1-

وعدتها في إحدى زياراتي الطبية لها -والتي كانت تتكرّر يوميًّا تقريبًا - أن أكتب قصَّتها المملة بكل تفاصيلها، وأنشرها على مدونة باسمها أو في رواية أو أرسلها على إيميلات أصدقائي، حتى تصير سيرتها على كل لسان.

قالت لي تشتم ابنتها:

- بتسخر مني يا ابن الـ"......"؟

- لا سامحني الله يا مستورة، بل أنت تستحقين ذلك..

- أني؟!

ضحكت من عفويتها وهي تقول: أني؟!

قلت وأنا أغلق حقيبتي على أجهزتي المتواضعة:

- بل قولي: أوَيستحقُّ أن يكتب مثلي عنك؟ قوليها بغرور، فمثلك يا مستورة من مكوِّنات الحياة، تمامًا كالماء والهواء والتراب..

نظرت نظرة الشاكّة في جدّيتي، قلت:

- صدقيني أنا جادٌّ في كلامي..

- طب هتكتب إيه؟

- نبدأ من دمنهور في مكان ميلادك.. أو -مثلاً- قصتك مع زيدان السنهوري.. أو العجوز عبد البديع.. أو دعك من هذا فليس فيه إثارة.. فلنبدأ بقصّتك عندما تحوّلت إلى بائعة سمن، أو قصّتك عندما عملت داية أو....

صاحت فيّ:

- كفاية يا أبو لسانين، مين حكالك كله ده؟

- وهل غيرك يا امرأة؟ لقد صدّعتني بقصصك.. في كل جلسة علاج تحكين لي عن بطولاتك.

استحْيت وقالت:

- هتكتب إيه تاني؟

- عن يوسف..

هنا تحوّلت ملامحها وصارت أكثر جدّية، ورنت بعينها بعيدًا:

- يوسف!

سكتت برهة، ثم قالت بحماس:

- اكتب عن يوسف.. خليه فارس.. خليه غني.. خليه فرحان على طول..

وقبل أن أنصرف، التفتُّ لها وقد أمسكت بمقبض حقيبتي:

- ولكن النهاية يا مستورة؟ آخر الحدوتة؟

- ودي أعرفها إزاي يا باش حكيم عصرك وأوانك؟!

حككت رأسي:

- ما رأيك -بما أنك تحبّين الزفة والأفراح والزغاريد- لو جعلتك تتزوَّجين من رجل في السبعينات مثلك، يكون ذا هيبة ومنصب وجاه.. ونقول جمعكتما علاقة حب منذ قديم، ومنعكما القدر وقسوة الزمان وتعسُّف الأب، ومثل هذا الكلام.. ثم جمعكما الله بعد هذا العمر، أو نختم بزفاف.. أو..

قاطعتني وقد أُلهمت فكرة:

- زفَّة.. أيوه زفَّة، ابدأ خاتمتي بزغاريد وطبل، عايزة فاطنة تزغرد لي زي ما علِّمتها.

استطردت مازحًا:

- إذن بالفعل هناك حبيب؟

سكتت شاردة.

خرجتُ مسرعًا.

***

في ذلك اليوم..

اتَّصلت بي على هاتفي الخاص وكنت لا أزال في المستشفى العام بالدلنجات.. كلَّمتني بحدَّة مداعِبة كطريقتها المعهودة معي:

- الحقني يا ابن الـ"....."!

- ماذا حدث؟

ككل مرة أخذت تعدِّد لي أنواع آلامها ومواضعها وأزماتها المفاجئة.. فضغطها قد علا حتى وصل عنان السماء.. وأصابها صداع نصفي يوشك أن ينتج عنه شلل نصفي لا قدر الله.. وسُكَّرها تحوَّل إلى عسل من زيادته.. وهي الآن تصارع الموت، «ويا تلحقني يا ما تلحقنيش»..

أسطوانة كانت تكرِّرها تقريبًا كل يومين.. فأضطرُّ مجبرًا أن أغادر العيادة مبكرًا؛ لإدراكها قبل فوات الأوان.. ثم إذا ما وصلتها وجدتها كالحصان تقطع البيت جيئة وذهابًا ليس بها بأس.. أو «ترغي» مع جارتها صفية، أو تحتدُّ على يوسف في التليفون تطلب منه أن يحضر الموسم، وإلا فإنها «لا أمه ولا تعرفه»، أو في أهدأ الأحوال تستمع إلى سورة يوسف، وتهتزُّ معها مردِّدة خلف الشيخ المنشاوي.

لكن اليوم اتصلت بي مبكرًا قبل أن أذهب إلى العيادة.. وبالتالي كان من السهل عليَّ أن أعلن الثورة فكان ردِّي جديدًا.. فتكاسلت عن الاستجابة ليقيني بعدم جدواها، فمكثت في المستشفى حتى الثانية عشرة ظهرًا، ثم استقللت سيارة وذهبت إلى عيادتي بدمنهور..

بعد ساعة جاءني اتصال من أمي تستعجلني هي الأخرى، وتشتمني هي الأخرى، فأخبرتها أنا الآخر.. أني لن أتأخر.

بعد دقائق اتصلت مستورة الاتصال الثالث.. لم أشأ أن أردَّ عليها فأنا أعلم أنها ستوبِّخني وتعتبرني خائنًا للعيش والملح، وتقول لي: «ما أنت فيه بسبب دعواتي يابن الـ.....»..

كرّرت الاتصال فاضطررت لمحادثتها، أجابتني برد موسمي لا يتكرّر كثيرًا، فقالت بحنان ورقة وهدوء:

- وحشتني يا حبيب ستك!

استغربتُ جملتها، فأردفتُ:

- ما تنساش قصتي يا واد يا ذك......

فصلت الشبكة كالعادة، لكنها لم تعاود الاتصال كالعادة..

أحسست برعشة جميلة من وقع جملتها الدافئة «يا حبيب ستك».. وددت لو أني أمامها لألقي برأسي في حضنها البحر..

في الرابعة مساءً أغلقت عيادتي، ونزلت لأستقل تاكسي إلى موقف دمنهور..

***

تحرّك التاكسي.. بشكل مصطنع تقمّصت دور الأديب الأريب.. فككت الكرافت.. رفعت الحقيبة على ركبتي وفتحتها.. أخرجت «اللاب» وفتحته.. ضغطت «تشغيل» ثم انتظرت دهرًا حتى يفتح لي أبوابه. فالفيروسات قد فعلت به ما فعل الزمان بمستورة.. أخيرًا أضاءت الشاشة.. ضغطت على الفأرة يمين.. فتجت «صفحة وورد» ثم كتبت في أعلى الصفحة بخط عريض..

-2-

مستورة عبد الرحمن ميكائيل.. هذا هو اسمها كما هو مدوّن في البطاقة، فقط قمت بتعديل الاسم الأول لحاجة فنية!

في حي شبرا بدمنهور في منتصف الثلاثينيات كان ميلادها.. حيث الاحتلال الإنجليزي ينشر عساكره.. وحيث الفقر والجهل والكوليرا التي طوّقت البلاد.. وحيث التظاهرات التي خرجت تندِّد بنوايا بريطانيا في فلسطين.. وتشدُّ من عضد الثورة هناك، ويهتفون: «يا عزيز يا ودود.. اطردوا كل اليهود»..

كان بيتها في أطراف الحي، يقصده الجميع لشهرة والدها، فقد كان شيخًا عربيًّا كبيرًا يعدُّ مُصلح الحي، يفضُّ النزاعات ويعيد الحقوق ويفرض التعويضات ولا يعصيه أحد، وكانت الحكومة تستعين به كثيرًا في مثل هذه الأمور..

اشتهر الشيخ عبد الرحمن بأنه لا يخوض مطلقًا في أي شأن سياسي، ولا يفتح أيَّ حديث به رائحة سياسة، بل يسارع هو بإغلاق الموضوعات التي بها

تجريح للسادة الإنجليز أو أو السيد الملك أو سادات الحكومة.. فقد كان دائمًا يكرّر:

- من الكياسة هجر السياسة..

الشخص الوحيد الذي كان يسمح له بفتح ملفات سياسية اضطرارًا هو الشيخ مصباح؛ فقط لأنه رضع مع زوجته وبالتالي فهو خال مستورة الوحيد.. ولم يكن يزورهم سوى مرة أو اثنتين في العام بل كان يكتم غيظه ويسمع له، لكن الشيخ مصباح كان يظل يحدثه بانفعال حتى يجره جرًّا إلى مستنقعات السياسة، فلا يلبث الشيخ عبد الرحمن أن يتورط ويسقط، فيتفاعل ويجادل ويناقش، فيغرقه الشيخ مصباح في الوحل أكثر، فيقول:

- بريطانيا خايفة من الوحدة..

- بريطانيا عارفه اللي فيها.. إحنا قنبلة متروعة الفتيل..

- المسلمين لو اتلموا مش هتقدرهم..

- ده لو!

- سبع جيوش هينسفوا إسرائيل ويربكوا بريطانيا..

- قلبك أبيض.. الأردن عملت عملة بدران مع أدهم وانسحبت .. والبقية تأتي..

- أنت متشائم..

- وأنت بتحلم..

- إنت شكلك صوفي كسول..

- وإنت شكلك إخوانجي عجول.. وهتودينا في داهية بكلامك في السياسة..

عندما يشعر الشيخ عبد الرحمن بأن الشيخ مصباح أوقعه فيما كان يخشاه، يعلن الانسحاب سريعًا، ويلتفت لمستورة التي جلست على الأرض متكئة بذراعها على الكنبة التي يجلسان عليها منتبهة إلى حديثهما باسمة:

- قومي اعملي لنا كوبايتين شاي يا آنسة.. أروي دمي اللي فار..

مستورة يستهويها جدالهما الذي ترى فيه أباها شخصًا آخر غير ذلك الهادئ الوديع.. فتراه غاضبًا محتدًّا سياسيًّا مخضرمًا يحلِّل ويفسِّر ويصول ويجول فتجلس للاستماع، أيضًا يعجبها منطق خالها، فتحفظ عن كليهما ما قالاه حتى إذا هبطت تثرثر مع روز، قالت لها: أبي يقول.. خالي يقول..

من حديثها عن أبيها تأكَّدتُ أنه كان صوفيًّا كما قال الشيخ مصباح، والصوفيون وقتها كان لهم شأن كبير، وانتشار واسع، وقلما تجد رجلاً لا ينتمي إلى طريقة صوفية ما، ولكنها لم تكن تعرف معنى صوفي، فأوضحت لها:

- أقصد «درويش».

- فامتعضت من تلك الكلمة، وقالت:

- عيب يا وله.. كان شيخ هيبة ومحترم..

عاشت بين ذراعيه سعيدة تنعم بطفولة رائعة، ظلت تتذكر الكثير من تفاصيلها رغم ما مر بها..

حكت لي فيما حكت عن رقَّة والدها الشديدة والغريبة في شخص مثله وفي مقامه ومركزه الأدبي.. فغيره من شيوخ العرب كان صاحب سطوة وشموخ

وهيبة وأيضًا كآبة «لزوم المشيخة».. لكن والدها كان ظريفًا فكِهًا مع كل الناس خاصة معها، فقد كانت وحيدته المدللة.

أيضًا حكت عن علاقتها الحميمة بصديقتها روز المسيري، والتي كانت أهم زوّار عيادتي في دمنهور.. وكانت مريضة بكل أنواع أمراض مستورة خاصة داء الثرثرة، قالت مستورة إنهما كانتا متساويتين، وإن علت روز من ناحية المادة، ولكن مقام الشيخ عبد الرحمن الأدبي كان يسمح لها بأن تصادق مثل روز المسيري، فكثيرًا ما يفعل الشرف ما يفعله المال والجاه.

وبعد ما أصاب مستورة من تقلُّبات الزمان ودوراته الشرعية وغير الشرعية، كانت دائمًا تذكر عائلة المسيري بخير لا سيما روز، وظللت مرسال خير بينهما سنوات طويلة منذ أن فتحت العيادة في دمنهور.. فروز تأتي كل يومين تقريبًا للعلاج، وتقرئ على مستورة السلامات مشفوعة بأمانات التوصيل.. ولأمانتي كنت أبلغ مستورة.. ومستورة بطبيعة الحال تردُّ التحية بأحسن منها، فترسل معي هداياها الريفية المتواضعة للسيدة روز البندرية.

دارت الأيام تصاعديًا بالنسبة لمستورة وتنازليًا بالنسبة للشيخ عبد الرحمن؛ حيث كان قد تخطَّى الستين في أواخر الأربعينيات.. وكانت تموج دمنهور بمشاغبات وتظاهرات قبل حرب فلسطين وبعدها، وقُبض عليه أكثر من مرة على أنه أحد المحرِّضين على الشغب، وهو بريء -مع الأسف- من ذلك.. وبعدها ضيَّق عليه البوليس الاجتماعات العربية التي كان هو رئيسها.. ثم منعوها نهائيًا.. خاصة وأنه كانت له علاقة وطيدة بأحد رموز الإخوان المسلمين في المنطقة، فرغم أنه قاطعهم جميعًا إمعانًا في الكياسة وترك السياسة، لكنه أبقى على أحدهم للعشرة، علاوة على الشيخ مصباح الذي لا يعرف له فصيلاً سياسيًا، بل كان يشكُّ بأنه من الإخوان..

إزاء هذا الواقع المقلق لشيخ كبير مثله، قرر العودة إلى نجع أبي غرارة ناحية مركز الدلنجات؛ حيث أسرته وعائلته وأرضه، وأيضًا فرصة للتخلص من مطاردات البوليس المزعجة.

جاءتها روز تتأكد من الخبر المحزن، فأكدت لها أن الانتقال بعد أسبوع.. لم تتركها روز في تلك الأيام، فكانت تجلس معها كل يوم من الشروق إلى الغروب تذكران الأيام الخالية والآتية.. حتى إذا جاء موعد الانصراف بكت كل منهما، واحتضنتا.. حتى جاء يوم الرحيل.. اختفت روز من الحي.. بحثت عنها مستورة.. فعرفت أنها فعلت ذلك لتهرب من شجن لحظات الفراق.. لكن قلب روز لم يطاوعها أن ترحل صديقتها دون أن تراها فظهرت والعربات الكارو تتحرك.. أوقفت مستورة المكاري.. نزلت مسرعة ارتمت في حضن روز فأخذتا تبكيان.. ولم ينطقا فلم يجدا ما يقولانه.. فقط تسمَّرتا تنظران إلى بعضهما.. ثم صعدت مستورة ثانية إلى العربة وعينها لم تنزل عن روز..

انقبض قلب مستورة لهذه النقلة؛ حيث تعوَّدت موطنها الأول وصديقاتها.. وكانت أولى الرحلات..

وبدأت دورة زمانها مع دورة إطار العربة..

***

استقللتُ السيارة من موقف دمنهور الجديد.. مضى وقت لم تتصل مستورة أو أمي، فعرفت أنها أخذت العلاج واستكانت، أو انشغلت بالحديث مع السيدة صفية، أو نامت وهي تستمع إلى سورتها الأثيرة.

المسافة بين دمنهور والدلنجات نحو 25 كيلومترا.. تستطيع السيارة البطيئة أن تقطعها في نحو نصف الساعة.. لكن اليوم كان ممطرًا.. وحركة السيارة أصعب والركاب أقل.. بعد صبر اكتمل عدد الركاب وانطلقت السيارة

مودّعة دمنهور.. وانطلقت في ذهني مستورة.. عدت إلى الصفحة التي فتحتها، ضغطت «إنتر».. أخذت أرتب العناصر وفصول القصة..

مضى ربع الساعة والسيارة لم تخرج من دمنهور بعد.. وأنا لم أكتب شيئًا كأنني كنت في انتظار إلهام.. ووصلني الإلهام بسلام عندما مررنا بالسيارة على نجوع العرب على اليمين بعد قرية «الحجناية» على حدود دمنهور الجنوبية، ورأيت بيوتهم الجديدة القديمة.. ثم لم أشأ أن أكتب حتى تمر السيارة على نجع «أبو غرارة» يمين الراكب المتجه إلى الدلنجات.. صوبت عيني كأني رأيتها هناك منذ ستين عامًا..

-3-

جلست هي وصاحبتها الجديدة «زمزم» تغسلان الماعون على شاطئ الترعة المارة من أمام البيوت في «أبو غرارة».. اختارتا أفضل منزل حجري كي تنزلا من خلاله إلى ماء الترعة، فتتخفيان عن عيون المارة وتلصُّصاتهم.. خاصة أن بجوار المنزل شجرة لا تزال مثلهما في صباها، تؤكد سرية لقائهما وتشكِّل لهما غطاء استراتيجيًّا محكمًا.. فتأخذهما القصص والحكايات المباحة وغير المباحة..

في أغلب الأحيان أثناء المداعبة والتدافع بالأيدي ومشاكسة زمزم ورش الماء المتبادل، يسقط غطاء إناء مستورة الكبير من بين يديها.. فتصرخ مستورة وتضرب صدرها.. فالغطاء تدحرج نحو القاع وقد يختفي في الطين، وأمها ستمسح بكرامتها الأرض.. تضحك زمزم ملء فيها حتى تدمع عينها، تغضب مستورة وتوشك أن تدفع بزمزم خلف الغطاء..

تنادي زمزم على أحد الصبية الذين يلعبون على الطريق.. فيأتي بدل الواحد اثنان فيقفزان بدورهما سعيدين كأنهما بطلان في السباحة.. بعد ثوان

يخرج أحدهما بالغطاء، فتتنفس مستورة الصعداء.. ثم لا تلبث أن تملأ إناءها من الترعة وتدفقه على رأس صاحبتها التي تكاد تنهار وتسقط في الترعة من كثرة الضحك وكثرة الماء على المنزل الناعم..

سريعًا ما احتوت مستورة المكان والناس بطبيعتها الظريفة الودود، واستبدلت زمزم بروز المسيري.. وأعجبها جو القرية أكثر من الحي الدمنهوري، فالقرية بعيدة عن الإنجليز وعسكرهم، وعن السياسة التي يكرهها أبوها وإن كان خالها الشيخ مصباح لا يزال يزورهم ويفتح ملفاتها.. وكانت آخر معلوماتها السياسية في هذه الفترة هي أن الرجل الطيب محمد نجيب صار رئيسًا للدولة التي تعيش فيها، واستطاع هو وأصحابه الفرسان أن يطردوا الخواجات وعسكرهم.. وتفاءل أبوها والشيخ مصباح بذلك.. ولم تعد السياسة محرَّمة في فقه أبيها، بل فقط صارت مكروهة..

-4-

ذات أمسية من أمسياتها التي لم تكن تنقطع على شاطئ الترعة مع زمزم.. أتتها أمها تأخذها من يدها، فانتحت بها جانبًا.. تقول لها هامسة:

- مبارك يا مستورة.. عَذَلك وصل.

ارتبكت.. نظرت إلى قرص الشمس الأحمر كأنها تقارنه بوجهها في لونه وحرارته في تلك اللحظة.. ثم أطرقت إلى الأرض.. ثم نظرت إلى زمزم كأنها تستغيث بها..

كانت مستورة صغيرة السن، بالتقريب في السادسة عشرة، لكن النساء عندنا يكبرن من العاشرة.. قلقت مستورة لحداثة الأمر وغرابة تصوُّره على ذهنها.. لكن حاولت أن تقنع نفسها بأن الأمر يبعث على السعادة والانتشاء، وسهلت زمزم عليها أمرها.. فقالت لها في ضحكة ماكرة:

- الجواز معناه إنك هتبقي صاحبة دار.. وأم عيال.. والنسوان هيشوفوا بطنك قدامك.. قد كده.. وهتمشي كدهه..

ثم تضع زمزم يدها خلف خصرها تقلد مشية الحامل ضاحكة.. فتبتسم مستورة ويصير الأمر أكثر حماسة فتردف شاردة:

- وأخلف عبد الرحمن وفاطنة.

لم يكن متاحًا لمستورة أن ترى عريسها أو يراها.. هكذا التقاليد.. رغم أنه قد يراها في الشارع أو عند الترعة، وربما يتعامل معها بيعًا وشراء في السوق مرة ومرات.. لكن أن يراها في بيتها كلا وحاشا!

حضرت مستورة إلى البيت مع أمها التي سحبتها من يدها كعنزة عمياء، وهي شاردة بظنونها تنظر خلفها حينًا وتحت قدمها حينًا.. كانت أم العريس تنتظرها مشتاقة بعد ما سمعته عنها من ابنها الذي لم يرها هو الآخر، بل سمع عنها من محفِّظه القديم الشيخ مصباح..

- بسم الله ما شاء الله.. خمسة وخميسة الله أكبر!

مستورة فاتنة في كل تقاطيعها.. بيضاء حوراء لا يعيبها إلا قصرها بعض الشيء.. بهرت حماتها التي أعجبت بها أكثر من ابنها.. لا سيما وأنها رأت تفاصيل لم يرها هو، أو لم يسمعها من الشيخ بالطبع..

وارت مستورة وجهها خلف طرف طرحتها وجلست حسب أوامر أمها ملتصقة بفخذ حماتها حتى يتهيأ للأخيرة كشف البضاعة وجسها..

رحَّب الشيخ عبد الرحمن بالزيجة، ولشدة إعجابه بالعريس لم يخرج ليستشير مستورة أو حتى يخبرها بموافقته.. بل أخذه الحديث مع الشاب الذي لم يأتِ بأبيه معه، بل جاء بمحفِّظه الشيخ مصباح كطرف محايد يتبع الطرفين، ولم يضايق الشيخ عبد الرحمن في الشاب سوى حماسه

للحديث في السياسة، وتحليله لشخص عبد الناصر المتخفِّي خلف نجيب، ولكنته الإسلامية التي تشبه لكنة شيخه المتهم في توجهه السياسي..

تأخرت مستورة في جلستها قليلاً حتى تفسح للكبيرات المجال للحديث، ولكنها ظلَّت مقيَّدة خجلة، بعد قليل ضاق بها الحال وقالت ليتها تنطلق من هذا الجوِّ النسوي التي صارت فيه محط الأنظار ومركز الهمز واللمز.. جاء الفرج.. دخلت زمزم عليهنَّ سعيدة داقعة الباب كأنها صاحبة دار وأكثر.. رفعت كفَّها أسفل أنفها تريد أن تأخذ الوضع العسكري الأمثل لإطلاق الزغرودة.. وقبل أن يتثنى لسانها ويتلولب ويتمحور أشارت لها أم مستورة بوقار ألا تفعل؛ فميعاد الزغرودة لم يحن بعد..

جلست زمزم مضطرَّة، ولم تغلق الباب خلفها، وحسنًا فعلت.. جلست بجوار صديقتها تقرصها في فخذها، ومستورة تدفع يدها في استحياء وتكتم ضحكتها أمام حماتها..

رفعت مستورة عنقها أخيرًا تحاول أن تلقي قيد حيائها.. كانت في مواجهة الباب مباشرة.. فرأت عفوًا الحجرة المقابلة التي يجلس فيها أبوها مع عريسها.. ثم رأت عفوًا عريسها.. نعم إنه هو.. يجلس محتشمًا منصتًا لأبيها.. يبتسم بوقار يبدو أنه مصطنع لكنه مؤدب يعرف لأبيها حقه.. يرتدي جلبابًا أبيض وطاقية شبيكة وقد حلق شاربه ولحيته.. وسيم إلى حد ما.. انتشت وفتحت باب قلبها بمقدار فتحة الباب.. فرحت بقدرها وحسن طالعها.. النظرة الثانية لم تكن عفوًا، صوَّبتها أكثر فقرأت الملامح أكثر فازداد إعجابها أكثر، زال خجلها، فأتبعت الثانية بالثالثة، وفي الرابعة كانت نظرته هو عفوًا فرآها من الزاوية نفسها.. ملأ عينيه منها، لكنه سرعان ما صرفها.. بل كأنه شعر بوخز الضمير، فلم يعد يرفع عنقه أثناء حديثه مع أبيها، وترك لها هي المجال تنظر ما شاءت..

ظلّت على حالها مستمتعة تسرق النظرة وتعود بها إلى جحرها، ثم تزداد طمعًا فتعاود الكرَّة وهكذا، حتى تكرَّمت الآنسة زمزم وأغلقت الباب بإشارة من أم مستورة صاحبة التدخُّلات المزعجة..

خرج أبوها من الحجرة المقابلة.. استأذن في الدخول.. أشار لمستورة فأخذها إلى البهو وحدَّثها.. لم تتذكَّر مستورة حرفًا مما قاله لها أبوها.. هذا طبيعي في حالة غياب الوعي التي كانت غارقة فيها، فهي قد أُخذت إلى عالم آخر، وجمعت كل حواسّها لتحافظ على صورة عريسها بذهنها.. ما تذكَّرته أن أباها أمر زمزم بأن تطلق سراح زغرودتها.. فأطلقتها.. فسارت في جسدها رعشة قوية كأنها كهرباء..

باتت تلك الليلة تحلم به.. تتقلَّب على الجنبين وتترك الفراش وتنزل إلى الأرض ثم تتمرَّغ على الأرض ثم تصعد إلى الفراش.. تغمض عينيها ثم تفتحها، ثم تشدُّ على جفونها فتغمضها.. كأنها تريد أن تحبس صورته بداخلها.. تتشتَّت ملامحه في أرجاء المكان فتجمعها بصعوبة.. تخشى شيئًا.. تشعر بأن الصورة تريد أن تقفز خارج صدرها، بل خارج عالمها.. إحساس مستورة بالسعادة لا يكتمل، فهي تعكِّره دائمًا على نفسها بسوء الظنّ في الآتي، حتى يتحوَّل هذا الظنُّ إلى واقع تعيشه.. فكانت على قناعة بأن الأشياء الجميلة لا تكتمل.. ولم يتغيَّر ذلك الإحساس الغبي إلا بعد حين..

لم تنم طويلاً.. استيقظت مبكرًا.. بل كانت تنتظر الشروق طيلة الليل.. عندما سمعت صوت إبريق الماء يصكُّ الطست الصغير الذي يتوضَّأ منه أبوها.. نهضت من على الفراش مطمئنَّة.. انتظرت حتى خرج أبوها للصلاة.. ثم خرجت إلى البهو، ففتحت الشباك وتنسَّمت الهواء الجميل، ونظرت بعيدًا إلى الحقول خلف البيت.. ما أروع المنظر، بل ما أروع الجنَّة التي نبتت أشجارها بداخلها.. وما أروع الأنهار التي انسابت من منابع قلبها..

تتحرَّك في البهو.. تكاد ترقص كالفراشة.. بمجرد أن ظهر بصيص نور من خلف الحجب.. سحبت بلاصها من أذنه كأنه صديقها، ورفعته على خصرها، وحوطته بذراعها كأنه وليدها، وكانت دائمًا «تتلكك» بملئه كلما أرادت الخروج..

اتَّجهت نحو بيت زمزم نشيطة.. فتحت دارهم عُنوة.. أيقظتها وجذبتها من على فراشها من جوار أخواتها.. أخرجتها معها دون أن تغسل وجهها.. وسارتا على الطريق بين الدور الناعسة لا يراهما إلا الدجاجات التي خرجت تبحث عن رزقها في الأجران.. شدَّتا الخطى متجهتين إلى الترعة.. والشمس لم تزل محبوسة خلف قضبانها..

حكت لها عن عريسها، ووصفت لها ما رأته وما لم تره، فبالغت حتى أثارت غيرة زمزم وغيظها، فهي لم تزل تتثاءب تغالب اليقظة التامة.. فشتمت العريس ومن أنجباه.. فغضبت مستورة.. فداعبتها زمزم وصالحتها بزغرودة خافتة تهواها مستورة.. ثم قطعتها خجلة عندما انتبه لهما الشيخ عبد الرحمن الخارج من المسجد.. ثم لم يشأ أن يضيِّق عليهما، فتغافل عنهما.. ودخل وكأنه لم يرهما.. فابتسمتا وهما تواريان فاهيما خلف كفَّيهما حياء، ثم غرقتا في الضحك.. ثم أكملتا المسير..

فرح الشيخ عبد الرحمن للسعادة التي غمرت وحيدته، فحمد الله أنه سيطمئنُّ عليها بين ذراعي رجل مثل حسن المحلاوي.. خاصة أنها لن تبتعد بهذه الزيجة عنه.. فبيتها الجديد سيكون في المسين، وهي في الجهة المقابلة لـ«أبو غرارة» يستطيع أن يزورها سائرًا على قدمه كلما شاء..

-5-

سرعان ما كتبوا الكتاب وعلّوا الجواب.. وزمزم وسائر صاحبات مستورة وجاراتها، أعلنَّ بالطبل والزمر عن الزفاف الميمون قبله بشهر وأكثر كعادتهن التي تعلَّمْنها من الفلاحات قبل كل زفاف.. فالبنات كنَّ يجتمعن عند مستورة في بيتها كل ليلة بعد العشاء فيطبلن ويرقصن على أنغام الملاعق والطسوت..

يا حمام ياللي ع البِنّي

عيناتك لاتنين عاجبني

بانيالك طوفة وبِنِّيَّة

وفرشالك من رمش عينيه

وهديتك من عمري هدية

ويطاوعك قلبك وتسيبني

يا حمام ياللي ع البِنّي

عيناتك لاتنين عاجبني

حبيتك وأني لسه عضارة

ودرنا والأيام دوارة

وف أول طيرك تهجرني

يا حمام ياللي ع البِنّي

غطيتك بالريش ممدود

وحميتك م الغِربة السود

وسقيتك من عيني بجود

وفديتك بالعين والنني

يا حمام ياللي ع البِني

عيناتك لاتنين عاجبني

بدرالك قمحي على سطحي

وهاديالك من حبة طرحي

وعطيتك من روحي وسني

يا حمام ياللي ع البِني

عيناتك لاتنين عاجبني

يا طاير طيَّر سلام

هل فاكر لسه الحمام

من بعد السنين وايام

للعودة لساه مستني

يا حمام ياللي ع البِني

عيناتك لاتنين عاجبني

أخذت الفرحة مستورة إلى عوالم بعيدة.. فجمعت من الفرح الكثير، وأخذت تلقي في خزائنها التي تخشى أن تنفد فجأة في أي حين، ثم أغلقت الخزائن بمزلاج القلق وجلست تترقب.. وتستعد لأيام مقبلة..

وفي الليلة الموعودة حُملت على هودجها المتواضع كإحدى الأميرات.. ترفع الستار قليلاً، تفتش بعينها عن عريسها فلا تجده.. تستعين بزمزم فلا تسعفها؛ فالطريق مظلم، والمشاعل لا تبدي غير أشباح السائرين.. تأخذها رهبة من الليل والريح التي تحرك الشجر المحيط على الجانبين وحفيفها الذي يثير خوفها أحيانًا.. وبرد نوفمبر صاحب المداعبات الثقيلة.. فتدقق النظر أكثر تبحث مجتهدة عن أمانها لعل رؤيته تؤنسها، فتعرفه من ظهره فتبتسم وترى في الليل قمرًا، وفي الريح نسيمًا عليلاً وفي البرد شهوة الاستدفاء.. كم تشتاق إليه! هي لم تكلمه كلمة ولم يكلمها كلمة، كل ما كان بينهما نظرات بكر حيية من خلال فتحة الباب إياها، لكنها قالت الكثير وفعلت الكثير..

مستورة تلكز زمزم الجالسة بجوارها وتشير لها إلى حبيبها وتخبرها فخورة أنها تعرف حسن من مشيته ومن لفتته ومن طريقة وضعه لطاقيته.. تتحدث كأنها زوجته منذ سنوات، تصف لزمزم حجمه وطوله وعوده.. زمزم

تطلق زغرودة.. مستورة تحركها الزغرودة وتزيد من نشوتها، ثم تحس مستورة بسريان كهرباء بجسدها فتنتفض.. تأخذها الفرحة بعيدًا فتحلق في السماء منتشية تتخيل ليلتها على أي حال ستنقضي مع حبيبها، تغلق فتحة الهودج حتى تتفادى شوكة البرد التي تسري في جسدها، فيصير الهودج أكثر دفئًا، فتوغل في هيمانها وشرودها..

تلكزها زمزم باسمة في مكر كأنها عاينت أفكارها، فتخجل مستورة وتطرق هاربة من عين صاحبتها الجريئة.. فتطلق زمزم زغرودة ثانية تؤخذ منها مستورة..

فجأة..

توقفت القافلة عن المسير.. شعرت بتوقف الجمل الذي تركبه.. سمعت مستورة هرجًا بالخارج وأصوات رجال متداخلة، فهناك من يأمر بماء ومن يطلب ببصلة.. لم تدر ماذا يحدث حولها.. كشفت زمزم فتحة في ستارة الهودج وتطلعتا إلى الجمهور حولهما.. لم تسمعا سوى تمتمات غير واضحة لم يستبن لهما شيء.. بدا أن أحد الضيوف أغشي عليه.. مستورة أصابها سهم البرد ثانية.. بدأت ترتعد.. أرسلت بنظرها بين الناس تفتش عن الحدث وتخشى أن تعرفه.. أرادت أن تعرف من ذا الذي قد التفوا حوله يحاولون إسعافه.. جالت بنظرها في الأماكن التي فيها المصابيح فرأت المصابيح تتجه إلى مكان واحد في المقدمة.. تقافز قلبها.. تذكرت خزائن سعادتها التي أغلقتها وأحكمت إغلاقها.. تشاءمت.. من يكون؟ أجابتها صرخة من أم حبيبها تدوي في السماء تنعي ولدها:

- حسـ..ان!

نعم قد مات..

مستورة تهتز وترتعش مفاصلها كلما حكت ذلك المشهد.. إنها الساعة التي قصت فيها شريط البدء، وسارت المشوار..

ارتبكت قافلة الفرح وعلت الحوقلات فتداخلت كأنها زمجرة غضب.. وضرب الرجال أكفهم بأكفهم.. واختلطت الأصوات وتفرقت المصابيح وأطفأت بعضها الرياح..

- معقول؟ الجدع يموت ليلة دخلته بالساهل كده!

ارتفع صوت المصمصات، وتحولت المزغردات إلى نائحات مولولات.. لم يتمالك الشيخ مصباح أعصابه فألقى بنفسه على الأرض يبكي بحرقة..

أما هي فقد غاب عنها وعيها وإن ظلت محملقة في الظلام.. فكأنما ماتت منتبهة..

احتار الناس ماذا يفعلون بها.. قرر الشيخ عبد الرحمن على الفور أن تعود إلى بيت أبيها؛ فهي لم تتزوج بعد..

- 6 -

مرت أسابيع ومستورة تعاني حمى شديدة لا يظن أحد أنها ستنجو منها.. تعاودها أحلام مفزعة تنتهي كل ليلة بصرخة منها مدوية.. ينهض على إثرها الشيخ عبد الرحمن نحوها، فيجلس بجوارها لا يبرح البيت يقرأ عند أذنها القرآن ويتلو الأدعية ويستغيث بالله.. وزمزم تأتيها كل يوم تجلس معها حتى موعد النوم وتواسيها بنظراتها الناعية.. تحاول أن تسامرها وتحكي لها الحكايات حتى تنتشلها من بئرها العميقة.. لكنها وكأنها صُمّت..

اقترحت عليها أكثر من مرة أن يخرجا إلى الترعة، كانت ترفض مستورة بهز عنقها.. ثم مع الوقت وافقت واجمة وسلمت جسدها لزمزم فخرجتا.. سحبتها زمزم من يدها أخذتها إلى شاطئهما الأثير.. رشت عليها الماء كثيرًا لكن مستورة لم تستجب لمداعبات زمزم.. بل هربت من أمامها إلى البيت منهارة تبكي..

بعد أيام هدأت مستورة قليلاً.. طلبت هي من زمزم أن تأخذها إلى الترعة.. لبَّت زمزم أمرها سعيدة ونهضت وأرخت لها ساعدها لتستند إليها وتنهض..

خرجت مستورة من حجرتها.. وضعت الأم ما في يدها وانتصبت تراقبها وتهمهم في سرها بالدعوات.. أخبرتها زمزم بأنها تريد أن تتمشى قليلاً إلى الترعة.. خرج الشيخ عبد الرحمن من حجرته ومعه مصحفه.. احتضنها وقبلها بين عينيها.. وقال لها:

- قدر ربنا يا مستورة..

سحبتها زمزم خارجة تمشي بها ببطء.. تدعو الله ألا تفعل مثل المرة السابقة.. وصلتا إلى شاطئ الترعة.. شردت مستورة تنظر حولها، تغير في عينها شكل الحقول ورأتها مخيفة مظلمة.. هربت بعينيها إلى السماء ارتخت أجفانها.. أغمضت عينيها ثم بكت بلا صوت.. اقتربت منها زمزم.. تقول هامسة:

- ربك كريم.. قادر يعوض..

مسحت مستورة دمعها، ونزلت درجات المنزل الحجري بهدوء.. نزلت خلفها زمزم تنتظر ماذا تفعل.. وضعت مستورة يدها في الماء ملأت راحتها واستدارت ببطء ورشت على زمزم الماء بوهن.. ابتسمت زمزم بحنان بل كادت تبكي.. تماسكت ونزلت خلفها، وأخذت المياه وقد نشطت لمداعبتها، ونثرت على وجهها:

- إنت اللي بديت.. والبادي أظلم..

رشت زمزم كثيرًا ومستورة تحاول أن تدافع عن نفسها وتغطي وجهها بذراعها الواهن.. وزمزم مستمرة في الرش والضحك.. كانت ملامح مستورة لا تزال جامدة حزينة إلى أنها تحاول أن تحطم باب سجنها.. فتفاعلت مع زمزم.. ومدت يدها فأفسحت لها زمزم المجال فأخذت مستورة من الماء

ورشت على وجه زمزم فضحكت زمزم وابتسمت مستورة.. ثم عادت مستورة تنظر إلى الأفق البعيد..

عالج الزمن سطح الجرح وإن بقي غائرًا في الصدر زمنًا.. مضى قرابة العام وعادت مستورة لحالها ونسي الناس ما كان..

خُطبت زمزم، فباركت لها مستورة وأرادت أن ترد لها جميلها، فجرَّبت لسانها لأول مرة في الزغاريد فانثنى في فمها كطفلة صغيرة وأصدر صريرًا مضحكًا أقرب لصراخ الأوَزِّ منه لزغرودة المرأة، فضحكت زمزم وتثنَّت حتى كادت تسقط على الأرض، ساخرة من حال صاحبتها، التي نزلت أرضًا ليست لها بأهل..

حاولت مستورة ثانية وصاحبتها مشغولة عنها بالضحك، فأطلقتها زغرودة رائعة جذبت أنظار النساء نحوها، توقفت زمزم عن ضحكها دهشة.. طالت الزغرودة، والجميع ينظر معجبًا.. ثم أحست مستورة بالنظرات المعجبة.. فسكتت وأغمضت عينها.. وقد زفرت بزغرودتها كل ما كان في صدرها من لوعة.. وابتسمت لها زمزم ثم دمعت عيناها فرحة بسلامة حبيبتها.. فجذبتها مستورة بقوة إلى حضنها..

-7-

انفرد الشيخ عبد الرحمن بابنته يستشيرها.. سكتت.. لمحت في عينيه شفقة المودّع إلى بيت لن تكون فيه أكرم مما كانت في بيت أبيها.. أخبرها أن العريس من أقرباء أمها.. متزوج من أخرى لا تنجب.. فانقبض قلبها وبلعت لعابها وأطرقت ناظرة إلى أصابع أقدامها.. هنا تدخلت أمها تزين الكلام قبل تعكيره، فحاولت أن تقنعها أن ذلك لا يعيب الرجل.. ففلان متزوج من اثنتين وفلان متزوج من ثلاثة وأبوك -لو تيسّر له- لتزوج ولما مانعت.. انسلّت مستورة إلى حجرتها.. وأمها لا تزال تُعدِّد..

انكمشت مستورة على سريرها.. تريد أن تبكي.. لكن تجمّدت عيناها وتيبّست الدموع في مآقيها.. شعرت رغم بكارتها بأنها صارت ثيبًا.. تستطيع الآن أن تحكِّم عقلها.. شردت تنظر في أرجاء الحجرة عساها تلتقط الصورة التي أحبَّتها.. لم تجدها.. حاولت.. حاولت.. لكنها لم تعد تستطيع تجميعها.. فألقت برأسها بين ركبتيها وبكت..

لم يستطع الشيخ عبد الرحمن أن يمنع تلك الزيجة حتى لا يغضب سائر العائلة. فلا يليق عند العرب أن يُرفض عريسهم ما دامت الشروط وافية: بعافية.. يملك المال.. لم يُفتضح بفاحشة وإن فعلها.. أيضًا هو يعلم جيدًا أن ابنته صارت في عداد الأرامل.. بل ليست كأي أرملة، فالبعض قال عنها إنها «وش شوم» على المسكين حسن المحلاوي.. والعرب هم أساتذة علم التشاؤم.. فترك الأمر لله وقال يخادع نفسه: عساه أن يكون خيرًا لها.. فهي إن أنجبت ستكون سيدة البيت وستسبق ضرّتها، وستأمر وتنهى في البيت كما شاءت..

لم تطل الأيام، وتم الزفاف بمظهر يشبه سابقه، لكن العروس في حال غير سابقه.. اجتهدت كثيرًا لتمحو أي أثر للرجل السابق من روحها.. فهي تعرف حق الزوجية وتقدّسه وتعتبر أي تفريط في الإحساس لرجل آخر هي خيانة عظمى للرجل الحالي.. وبالفعل لم تعاودها من الرجل الأول سوى الصورة، ولم يتحرك قلبها إليه سوى مرة أو مرتين بعد ذلك..

سار بها الجمل من نجع «أبو غرارة» متجهًا إلى قرية «أبو سعيفة» والتي كان أغلبها فلاحين..

خرج كل أهلها خلفها لكي يُشعروها بالفرحة، ويُنسوها ما كان.. وبعض بني عمومتها استأجر مهرة يتبختر بها معجبًا أمام هودجها.. رفعت مستورة ستار الهودج.. مستورة تعشق الأفراح وتهيم مع الزغاريد.. تمتعها رنتها.. ويتراقص قلبها مع أصواتها.. وها هي الآن نجمة الحفل.. لكنها تشعر أن نجوميتها باهتة.. بدت متوترة تائهة.. الناس محشودون.. صوت الطبول.. رنات الزغاريد.. هزّات الهودج التي تشعر معه في كل حركة أنها ستسقط وتموت..

زاد كربها عندما رنت ببصرها إلى والدها الذي يسير وسط المشايخ منحنيًا مهزومًا كأنه يسير في جنازتها.. انقبض قلبها أكثر، ولم تتمالك نفسها فغرقت في البكاء.. زمزم الملتصقة بها على الهودج للمرة الثانية.. أنَّبتها:

- إيه الجنان ده؟! عروسة بتعيط ليلة فرحها! اخزي الشيطان أمَال..

مدَّت زمزم يدها بطرف طرحتها تمسح لها دموعها، وتضبط لها الكحل والبودرة التي أفسدتها بدمعها:

- كده يا فقرية.. بوَّظتِ الزينة..

ثم نظرت إليها معجبة:

- يا هنياله.. يا ريتني مطرحه..

فابتسمت مستورة بألم..

- أيوه كده.. اللي جاي أحلى يا بت..

أخيرًا وصلت "أبو سعيفة" وهناك كان ينتظرها ما ينتظرها..

***

السيارة المنكوبة التي أركبها تمشي بنا كأنها تسير على حبل.. الركاب يصرخون في السائق أن يتحرك.. وهو يقول:

- يا ناس الطريق كله وحلة وحفر لو جريت هننقلب..

لم أكن أشكو كسائر الركاب؛ فالسير البطيء يمكِّنني أكثر من الكتابة.. وإن كانت أصابعي كثيرًا ما تخطئ الهبوط على اللوحة، وتتجه اتجاهات غبية، كان أغلبها ناحية «Delete»..

كنت أتطلّع بين الحين والآخر إلى التليفون أريد أن أرى هل من اتصال.. فكرت أن أتصل بها لكني تراجعت.. فقد تشتمني وتوبخني على التأخير فتمحو آخر جملها الرومانسية معي.. اقتربت السيارة من «أبو سعيفة»..

أما مستورة فكانت قد سبقت إلى هناك.. ونزلت عن هودجها.. ودخلت..

-8-

في حظيرته.. على ركن من الفراش جلست القرفصاء تترقب.. دفع باب الحجرة بقوة ولهفة الجائع إلى عشاء سمين.. فبدا لها ثورًا بدينًا في الأربعين من عمره.. رنت إلى ملامحه القاسية النهمة التي لا تعرف حبًّا ولا ودًّا.. فارتعدت وخفق قلبها وبلعت لعابها.. ثم أطرقت وسلمت نفسها ذبيحة..

كانت تغضي الذكر عن تلك الليلة، وتشيح بوجهها شاردة متجهمة كلما دنت تفاصيل القصة من عشرتها بذلك الرجل خاصة تلك الليلة.

رجوتها كثيرًا أن تحكي عن تفاصيل ليلتها حتى يكون في قصتنا شيء مثير كسائر القصص، قالت ولم تزد:

- كان ثورًا!!

الجملة واضحة.. مع الأسف واضحة! أردت أن أستزيدها.. لكن أوجعني وصفها إياه بالثور، فأحجمت؛ حتى لا أكون من السلالة نفسها.

كان حمدان السنهوري بدويًا خالصًا نزح من حوش عيسى منذ سنوات.. عاشر الفلاحين في أبو سعيفة مدة طويلة لكنه ظل على طبيعته الصلبة الجافة.. لم تستطع مستورة أن تألفه رغم أنها كانت تألف طوب الأرض في أيام قليلة.. لكن حمدان كان كما وصفت!

في الصباحية المباركة أيقظت بصياح «تعويضة» ضرتها.. كأنه إعلان نفير، لتقوم إلى الكنس والطبخ والغسيل وتبدأ دراما جديدة.. استيقظ حمدان على نقيق تعويضة، وقال بجلافة ضاحكًا:

- همي يا عسل.. تعويضة مفترية.. ربنا يكفيك شرها..

لملمت ثيابها.. فتحت الباب.. خرجت ببطء.. تفقدت بهو دارها الجديدة وهي تبلع لعابها بصعوبة.. في آخر البهو وقفت تعويضة في يدها مكنسة بلح كأنها متأهبة لقتال، ألقت إلى مستورة المكنسة، كأنها تدعوها لنزال:

- يلا يا اسمك إيه..

مستورة جفّ ريقها وعلا وجيب صدرها وزادت دقات قلبها.. لم تتوقع أن تهان هكذا من أول لحظة.. تقوّت وجمعت شهيقًا من أرجاء البهو وحبسته في صدرها.. ثم قالت في هدوء مصطنع مع ابتسامة مهذبة:

- اسمي مستورة..

تعويضة جهزت ردًا لأنها اعتبرت أن مستورة بذلك ترد عليها ما قالت.. هناك نذير معركة ستنشب.. انتشلتها منها رباب الباسمة دائمًا.. فجاءت غوث لها من ربها..

- عاشت الأسامي يا مستورة..

أخذتها إلى خضنها:

- صباحية مباركة يا مراة أخويا..

ثم أخذت تنظر إليها معجبة:

- بسم الله ما شاء الله.. إيه الحلاوة دي كلها..

رباب هي شقيقة حمدان الوحيدة.. متزوجة في القرية نفسها وتأتي من وقت لآخر تطمئن على من في البيت.. ولم تكثر زيارتها إلا مع مجيء مستورة..

تنفست مستورة الصعداء فهناك أمل في أنها ستلاقي في هذا البيت بعض الإكرام، استعدت للخطوة الثانية.. قبل أن تبادرها تعويضة الثائرة المتنمرة بجملة أخرى تضطر معها إلى الرد.. وتبدأ الحرب سريعًا.. انحنت مستورة إلى المكنسة وهي تقول:

- عنّك يا تعويضة..

ألجمت تعويضة ولم ترد فدخلت الزريبة مندفعة، وأخذت تضرب في الجاموسة التي تحلبها:

- عه يا بنت الجاموسة!

ضحكت رباب ضحكة عالية، وظنت في مستورة البريئة أنها ستستطيع الدفاع عن نفسها في تلك الحرب الشرسة، لكن مستورة في ذلك الوقت كانت أضعف من ذلك..

أخذت مستورة تدفع بأيامها في هذه الدار كدفع سيارة متهالكة، فقد اعتبرتها من في الدار جاريتهم الجديدة، وقُدمت إليهم بأنها كان متزوجة ومات زوجها فهم بذلك تفضلوا عليها بقبولها زوجة لابنهم.. ولم يكن في الدار أحد

يعتني بها سوى رباب التي تزورها كل يوم تقريبًا.. فحاولت أن تتعايش مع ضرتها الغبية وزوجها الأغبى وحماها شبيه ابنه..

أوكلت تعويضة إليها أمر المطبخ، ففيه تكثر الأخطاء وتكثر الحجج للإهانات وغضب الرجال الجائعين..

كانت تجهز الأكل ذات يوم أعجبتها الخلطة وهي تتصاعد منها أبخرتها تتماوج راقصة أمام أنفها، فكان رد فعلها الطبيعي أن تناولت من الخلطة ملعقة واثنتين وفي الثالثة رآها الثور -حسب وصفها- فثار وصال وجال ورفع يده ولطمها على خدها فسقطت على الأرض مصعوقة لا تدري ماذا جنت؟!

عرفت بعد ذلك، من خلال خبيرات الحياة البدوية، التي لم تكن عاشتها طويلاً مع أبيها.. أن أكل الصلصة يعني الخيانة الزوجية!

خيانة!

أي خيانة! مستورة تخون؟!

وما علاقة الصلصة بالخيانة؟!

هي علاقة الثور بالمعرفة.. تناقضات يجمعها عقل متناقض.. عقيدة يؤمن بها الكافر، عجل تعبَّدت به بنو إسرائيل.. رمز أحمق يعبِّر عن غباء ومادية ورغبة في ترميز الحياة، فالقلب المصمت يصعب عليه الإيمان بالمعاني المجردة، والعقل الغبي يصعب عليه تخيلها، فيضع لنفسه إلهًا يلمسه بكفه ويقبِّله كرامة، وذلك هو الكفر بعينه، فالحب والإيمان أبعد الأشياء عن قلوب الثيران.

فأكل الصلصة، عند أدباء البدو الألمعيين، يعني «الطفاسة» و«الطفاسة» عند أدباء البدو الألمعين تعني «الرمرمة»، و«الرمرمة» تؤدي إلى الخيانة.. هكذا الفكرة.. وهكذا أعتقد أني قد أنرت المحكمة..

جاءتها أمها تزورها بعد أول أسبوع.. ولم يأت أبوها لمرضه الشديد، سألتها أمها عن حالها فحكت لها بعضًا من قسوة تعويضة وشيئًا من غباء حمدان، فقالت لها أمها تعظها:

- شدي حيلك انتي واحبلي.. وانتي تبقي ستهم، وتدوسي فوق رقبة الكل..

شردت مستورة فهي في واد وأمها في واد، خرجت أمها وأوصتها بالصبر على حال بيتها فكل البيوت هكذا، أخبرتها مستورة أنها تريد أن ترى أباها..

- أول ما يشد حيله هيجيلك..

مرت الأيام بطيئة كئيبة لا تجد لها مؤنسًا إلا رباب التي تأتي من حين لآخر تزورهم فتحكي معها وتشكو لها، فتربت على كتفها وتحاول أن ترقق قلب تعويضة عليها، لكن لا فائدة..

مرت الأيام فلم تحمل مستورة وبالتالي فقد فسدت خطة أمها..

أوحشتها الترعة فخرجت بإنائها فارغًا لتملأه من الترعة، وهي الترعة نفسها المارة أمام «أبو غرارة».. قابلها في الطريق الحاج محمود أبو زوجها فرأى في يدها الحلة فارغة.. فانتفخت أوداجه، وارتفعت حواجبه، وغلظ صوته.. وأبدى تشاؤمه من النهار كله، وانتهرها وأعادها إلى البيت ومعها ما لذ وطاب من الشتائم والسباب..

فكيف تقابله بالإناء فارغًا؟

ماذا يعني ذلك أيضًا؟ لم تفهم.. ثم أخبرتها إحدى الثقات أن الإناء الفارغ يعني الفقر والجوع.

أجاعهم الله! وكأنهم كانوا شبعى!

توالت الصدمات على نفس مستورة، فتركت في قلبها الأبيض نكات سوداء، فتجمعت حتى تحولت إلى سحابة حزينة، كادت أن تحول مستورة الهادئة الرقيقة إلى كائن ذي مخالب..

حاولت أن تتأقلم مع تعويضة القاسية، وتتساءل لمَ هي قاسية؟ فتجيب هي على نفسها، وتبرر قسوة ضرتها حتى تستطيع تحملها، فتقول إن امرأة في مثل عمرها لم تنجب إلى الآن من الصعب أن تكون طبيعية مع ضرتها الجديدة التي جاءت كي تحقق ما لم تحققه هي، فتعويضة مدفوعة إلى ذلك العنف دفعًا لا إراديًا، وعليه لا بد أن تتحمل مستورة جلافتها.. هكذا أراحت نفسها قليلاً، وحاولت أن تتعايش مع ضرتها بعد أن تيقنت أنها لن تتغير..

لكنها لم تستطع أن تبرر للثور جلافته ومعاملته البهيمية، إلا أنه قد ركبه شيطان أحمق غبي فحمله على الإيذاء حملاً، وتلك إعاقة نفسية تجعله يؤذي ويشتهي الإيذاء رغم أنه من السهل أن يكون طيبًا سويًا.

أدركت مع الوقت أن الحياة تسير هكذا ملؤها الاختبارات والآلام أحيانًا، حتى نفرح حينًا، وقد يهان الطيب لحكمة يعلمها الله، ويعز الخبيث أيضًا لحكمة يعلمها الله، لكن كل شيء يحتاج إلى الصبر، والصبر مركبه الزمن..

مضت شهور وهي في بيت السنهوري تلاقي ألوان الاضطهاد وتحاول أن تبتدع أسلوبًا في التعامل مع الحياة الجديدة، وإن كان ذلك قد أخذ من براءتها الكثير، لكن ما باليد حيلة..

تحجر قلب مستورة تجاه ثورها.. فردت باب قلبها وأغلقته بإحكام..

وذات يوم دخل عليها وضربها بعنف عندما علم أن جارهم رُزق بولد، يسألها:

- ليه ما خلفتيش يا بور؟

بالاستقراء عرفت أنه كان عقيمًا، فها هي الزوجة الثانية ولم ينجب، لكن في هذا الوقت كان الرجال يظنون أنهم لا يعقمون، والعيب يكون دائمًا في المرأة.. لذا هددها وهدد ضرتها أن يتزوج الثالثة.. لكن قبل أن ينفذ تهديده.. أصيب بحمى شديدة أقعدته في الفراش أيامًا طوالاً.. وحولته من ثور إلى فأر.. فرأته يئن كصقر سقط في شباك، ويخرف بكلام مطلسم.. عرفت أن لكل قوي من يقهره..

لكنها مرَّضته وسهرت بجواره مجبرة، وكان يرق قلبها لحاله حينًا، فلا يسعها إلا أن تهمس وهي تراه في محنته:

- الله يسامحك..

أثبتت تلك المحنة معدنها، وكم هي غالية وتستحق من الثور بعض الاعتناء.. فعلت له كل شيء حسب ما تعلمت في بيت أبيها.. فأعطت متناسية ما كان منه مدفوعة بالواجب الزوجي.. وإن كانت تدعو في سرها أحيانًا أن يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ويقصف عمره آجلاً لا عاجلاً.. حتى تعود لبيت أبيها قبل أن تنجب منه ثورًا صغيرًا..

بعد أن كان قد أشرف على الموت.. أدركه القدر على حافة شاطئه.. فعوفي الرجل وكانت هي سببًا في شفائه.. حمل لها جميلها وذهبت عنه بعض الجلافة ورق قلبه الصلب قليلاً، فالمرض يفعل في الإنسان ما لا تفعله

الكرابيج.. خاصة إن كان من معدن حمدان غير النقي.. فصار يناديها باسمها ويعاملها بلطف لم تعهده عليه، ولم تكن تتخيل أن يخرج من مثله..

لكن إمعانًا في دراما الحياة.. صُدم الثور بعد أن عوفي من الحمى بكارثة الكوارث.. فقد خرج من المرض عنّينًا مصابًا في ذكورته!

قد يكون الأمر طارئًا وسيتغير مع الأيام.. لكن لأن مثله تتعلق حياته بذكوريته.. اشتعلت أعصابه وفلت ذهنه، وضاعف هو من أسباب المرض فتضاعف المرض.. فصارت فرصة العلاج مستحيلة..

مستورة كانت هادئة للغاية.. لم يزعجها الأمر كثيرًا.. فالمرأة إذا كرهت زوجها ماتت لهفتها إليه، بل لعلها حمدت ربها أن أبعد جسده عنها.. حاولت بذكاء أن تتفادى فضحه أمام نفسه وإبداء ضعفه.. فكلما حاول الاقتراب منها ولم يجد في نفسه قوة تضاحكت وغيرت الموضوع.. وسألته عن الأرض وحدثته في السياسة التي كانت لا تعرف عنها شيئًا في ذلك الحين إلا أن الرئيس الطيب اختفى فجأة وجاء رئيس أجدع منه اسمه جمال عبد الناصر يغني له السيد عبد الحليم والسيدة أم كلثوم.

أضرمت العنة بداخل زيدان نارًا، فصار جوفه يحترق وشهوته تحترق، وصار كأنه يغتصب نفسه.. فكما أكل مستورة بشهوته تأكله الآن شهوته.. فالثور يرى كل عظمته وهيبته في ثيرانيته.. فالآن يستطيع أتفه الفئران أن يهز له ذيله ليغيظه ويقهره.. ويسائله: كيف حال ثورنا؟!

ولتتعقد الدراما أكثر، فقد كان لهذا التطور الثوري أثر آخر كان نتيجة طبيعية لوضعه الذكوري الجديد.. فقد تحول ضعفه وعدم قدرته على إتيان مستورة على أي نحو إلى شك صوره له نفس الشيطان الغبي الأحمق الذي يركبه، فهو لا يستطيع أن يقوم بدوره المعتاد في التهامها، فإن واتته

الشهوة خذلته نفسه فلا يستطيع ذلك، ومن قبل أكلت مستورة من الصلصة، إذن قد تبحث عن غيره.. فراقبها، تطورت المراقبة إلى وسوسة بغيضة، حتى إن ضربها تعويضة منعته عن تلك الفكرة الغبية؛ لأنه بذلك قد تخطى كل الحدود.. فهو يتحدث عن عربية شريفة لا يليق بأي حال من الأحوال أن يتهمها..

ثار الثور.. لم يستطع أن يكتم وسواسه هذا.. انهال عليها ضربًا يسألها كلما تأخرت في ملء البلاص.. أو عند إحدى جاراتها..

تدخلت أخته رباب لتمنعه عن غبائه لم يرتدع.. عرضت مساعدتها على مستورة واقترحت عليها أن تترك الدار.. فمثله لا يليق بها ولا يستحق أن تستمر معه.. مستورة أخيرًا أعلنت أنها لم تعد تحتمل، ولن ترسب في ثاني اختبار.. فجمعت ثيابها وخرجت هاربة من ذلك الجحيم..

رآها حمدان قدرًا وقد وضعت ثيابها في جعبتها وحملتها بين يديها.. وقفت أمامه محدجة بقوة كأنها تقول لو حاولت منعي سأقتلك.. أطرق مخزيًا.. أفسح لها الطريق.. لم يشأ أن يمنعها.. فتركُها البيت حجة مناسبة لتطليقها ولتفادي فضيحته وخيبة أمله.. فأحنى رأسه وهرب بعينه من عينها كأنه يعتذر لها عن قصته الحزينة معها!

***

السيارة لا تزال تسير حينًا وتتوقف أحيانًا، والتفاصيل التي تركتها أكثر مما ذكرتها، والتي نسيتها أكثر مما تركتها، والتي حذفتها بـ«Delete» أكثر مما كتبتها.. ولكن أريد أن أسرع لأصل إلى البداية.

-9-

هربت مستورة من حظيرة الثور إلى بيت أبيها فنجت بنفسها من هلاك نفسي محقق.. دخلت «أبو غرارة» ليلاً وحيدة تبكي وتنعي بختها.. لأول مرة تسير وحدها في الظلام.. لكنها الآن أكثر أمانًا منها وهي في حظيرة الثور.. لم تشعر بالمنظر المخيف المحيط بها.. فشعورها بالتحرر غلب كل شيء.. ورقات عيدان الذرة تتشاكس مع الرياح تريد أن تلفت قلب مستورة الرقيق فتفزعه.. ثم تتعاون الكلاب الرابضة على رءوس القنوات مع وريقات الذرة فتعوي كالذئاب.. لكن مستورة تمد الخطى قوية تستنشق الهواء لتتأكد لها حريتها..

تذكرت هودجها الذي كان سيقلها إلى بيت حسن.. بكت.. تذكرت هودجها الذي أقلها إلى الحظيرة.. بكت.. تذكرت هواها على تعويضة وحمدان.. بكت.. تذكرت حالها الآن.. بكت..

مرت بجوار المنزل الحجري الأثير.. رأت الشجرة قد طال ساقها وصارت فتية.. مسحت دموعها.. فغدًا ستنسى مع زمزم ما كان..

طرقت الباب بوهن.. فتحت أمها فوجئت بها.. اندفعت مستورة من بين يدي أمها إلى حجرة أبيها.. فحضنه مقصودها الأول.. عندما رآها انتفض سعيدًا وكأنه كان بانتظارها.. صاح:

- مستورة!

ألقت بنفسها في حضنه الواهن.. ضغط عليها بقوة.. وأجهشت هي بالبكاء..

تركُها بيت زوجها لم يكن بالأمر الهين على أبيها الشيخ المبجل.. فالأمر له أبعاد أخرى أثارت تحفظ أمها الشديد وغضبها الحارق، خاصة مع همسات الجارات ولمزهن وغمزهن.. لكن الرجل كان يدرك تمامًا أنه قد جنى عليها بتزويجها من حمدان، فما كان منه حين رآها إلى أن استسمحها بتلك الأحضان.. فهو على أعتاب قبره ولم يخرج من الدنيا إلا بها، فيكفيها مصابها الأول، وهي الرقيقة المدللة..

بكت مستورة على صدر أبيها فاستراحت.. وحاولت أن تنسى بين ذراعيه حوافر الثور، وتنسى بقبلات أبيها نهشات حمدان في لحمها.

حكت لأبيها ما كان، وغفلت عن بعض التفاصيل خجلاً.. فما كان منه إلا أن طلب منها العفو والسماح مع كل جملة تقولها.. وأمها تغدو في بهو الدار لا يعجبها الحال.. لكنها لم تستطع أن تنطق.. فإن فعلت ستغضب الرجل المريض الحانق عليها بداية؛ لأنها هي وسيط تلك الزيجة الشوم..

مرت الأيام الخرُوبية، وانتهت حلقة العذاب الثانية بحمد الله، ونجحت مستورة في الامتحان الثاني بالصبر.. لكن لا تتعجلوا في الحكم على صبرها فالأيام القاتمة كثيرة.. أيضًا لا تتشاءموا فأيامها السعيدة آتية لا محالة..

سألت عن خليلتها زمزم، أخبروها أنها تزوجت في قرية «الميهي» من ابن إبراهيم الصوفي، وهي الآن حامل.. بلعت ريقها.. شردت تفكر في حالها حزينة.. ثم ابتسمت عندما تخيلت زمزم تمشي مشية الحامل التي كانت تقلدها.. ثم ضحكت ملء فيها عندما رأتها فجأة أمامها في زيارة وقد علت بطنها بالفعل.. بادرتها زمزم:

- زيارة ولا غضبانة؟

- طفشانة..

قالتها مستورة بهدوء، وحكت لها فصلاً من القصة تروي فضول صاحبتها، فلعنته زمزم ألف مرة ترضية لخاطر صديقتها وقيامًا بواجب العزاء:

- جلف ما يستاهلكيش..

- الله يسامحه بقى..

جذبتها زمزم وانطلقتا إلى منزل الترعة الأثير، دارت مستورة حول الشجرة.. احتضنتها.. استغربت زمزم لحالها ثم ضحكت من أطوار صاحبتها الجديدة.. نزلتا درج المنزل.. جلستا ووضعتا أقدامهما في الماء كما كانتا تفعلان من قبل.. لكنهما كانتا أكثر هدوءًا من ذي قبل.. فقد أخذتا هيئة المتزوجات وسمتهن، وإن كانت الصبيتان لا تزالان تخطران بداخلهما، لكنهما خُبستا إلى حين.. خاصة وأن زمزم هي الأخرى كانت لديها في بريدها بعض شكاوى الحياة.. فحكت لمستورة عن ضيق ذات اليد الذي جعل أبا زوجها يقرر الانتقال بهم بداية من العام القادم إلى «بير العسل»، وزراعة الأرض هناك..

لم تجد مستورة بدًا من حكاية تفاصيلها التي أخفتها عن الجميع فشفت صدرها.. وواست كل منهما الأخرى.. وافترقا على أمل اللقاء..

-10-

عاشت في كنف أبيها ثانية، وعادت إلى بعض سيرتها الأولى.. فاستراحت قليلاً لما آل إليه الحال.. وحاول أبوها أن ينقذها من شرودها وفكرها ويعيد إليها ضحكاتها.. فاستقوى على مرضه من أجلها، وأخذها وارتحل بها إلى أقربائه في دمنهور، فزارت هناك روز وجلست معها طويلاً وحكت لها كثيرًا عن زمزم، وكانت قد تزوجت هي الأخرى من ابن عمها في البيت نفسه..

ثم أخذ الشيخ عبد الرحمن مستورة إلى «بير العسل» و«أبو مسعود».. ورأت الكثير وسمعت الكثير.. واقترح أبوها عليها أن يرتحلا إلى القاهرة لزيارة سيدنا الحسين.. بالطبع كانت تتمنى ذلك، لكنها أمام ضعف أبيها الذي تراه رفضت بشدة وقالت:

- بعد ربنا ما يتم شفاك إن شاء الله..

عادت من تلك النزهة منشرحة الصدر قليلاً، وقد أعاد لها الزمان قليلاً مما أخذ.. ولم يبق لها لتمام شفائها إلا أن ترى خالها المزعوم الشيخ مصباح.. لكن لا أحد يعرف عنه خبرًا..

حاول أبوها أن يعلمها القراءة في وقت فراغها.. لكنها كانت منذ صغرها تكره التعليم ربما لضيق في استيعابها، فلم تستجب إليه، فلم يشأ أن ينغص عليها واكتفى بتحفيظها سورة يوسف التي كانت متيمة بها.. وأيضًا لم تحفظها..

أنهى مهمته على أكمل وجه من وجهة نظر مستورة.. فرقد على فراشه ينتظر قدوم الضيف الكريم.. لم ينقطع حديثه لها وإن ظلت كلماته تتقطع وتتباطأ.. فسر لها سورة يوسف من جديد.. وعند ذكر الوزارة والثراء.. كان ملك الموت قد استأذن عليه في هدوء، وتسلم الوديعة.

انزوت أيامًا في فراشها تتمتم بما تحفظه من سورتها الأثيرة تثبت به قلبها.. حتى إذا وصلت إلى آية لا تحفظها سكتت.. انقضت أيام العزاء الثلاثة ثم الخميس الصغير (أول أسبوع بعد الوفاة) ثم الخميس الكبير (ثاني أسبوع بعد الوفاة).. ثم الأربعين..

تيتمت وصار موقفها - رغم جمالها - أصعب في عالم النساء؛ فقد ترملت من الرجل الأول وقالوا على ذلك «نحس» بعيدًا عن السامعين.. وطُلقت من الرجل الثاني، ولا يعلم أحد لذلك سببًا.. ثم تيتمت ومات أبوها، لذا فقد كان انتظارها لعريس آخر أمرًا صعبًا..

عاشت مستورة مع أمها تختلفان في المظهر والجوهر، فأمها من طول عشرتها بالرجال والبدو بهتت عليها طبائع الرجال، بل صارت أشد قسوة منهم.. بطبيعة الحال صار بينهما شرخ كبير لاختلاف الطبائع.. فمستورة ابنة حي دمنهوري معظمه من الفلاحين والفلاحون لهم طبيعتهم الأقرب للمدينة في التعامل والألفة والذوق، لكن أمها بدوية خالصة قضت كثيرًا من عمرها في فراغات الصحراء، كانت تعاني كأنثى في صغرها من تقاليد البدو

وتعقيداتهم، لكن مع مرور العمر اختلطت عاداتهم بفكرها ودمها، وصارت هي الحاكمة بقانونهم..

جلستا في البيت تنعيان الوحشة والوحدة رغم زيارات الأقارب التي لا تنتهي.. لكن إذا خلت الدار من الناس ولم يبق سوى مستورة وأمها.. كان الصمت ثالثهما.. فتقضي مستورة واجباتها دون كثير كلام.. ثم تخرج في الضحى إلى شاطئ الترعة بالبلاص.. ولكنها في الأصل كانت تهرب من ذاك السجن الذي تحمل أمها مفاتيحه.. فتمكث عند الترعة إلى قرب الظهيرة، ثم تعود لتجهز طعام العشاء، ثم تصعد لتجلس في المقعد في الطابق الثاني منفردة بنفسها تفتح كتاب ذاكرتها تفتش عمن بقي لها في صفحاته.. فجأة حركها الحنين للشيخ مصباح.. أين هو؟ أين اختفى فجأة؟ يا ليته يظهر! فيحدثها عن أبيها وعن حسن..

دارت الأيام سريعًا ونزلت تترات الحلقة الثالثة من الألم والعذابات مع زيارة مفاجئة لعبد البديع الغنام أثناء وجبة غداء..

-11-

فلاح ابن فلاح ابن بدوية.. كانت له علائق بالبدو من جهة الأم فكانوا أجداده، وهم من الفرع نفسه الذي تنتمي إليه مستورة.. كان عبد البديع الغنام كبيرًا في عائلته.. توفيت زوجته منذ زمن وغفل عن الزواج دهرًا.. حتى نبهه بعد الأصدقاء لا سامحهم الله.. فانتبه.. سمع عن مستورة وجمالها، وأنها مطلقة، فسال لعابه للزواج خاصة وأنها صغيرة لم تصل العشرين بعد.. وهو قد تجاوز الخمسين.. فسعى أولاد الـ... للتوفيق بينهما، وكان ما كان..

قالت لها أمها:

- يعتبر ابن عمة المرحوم.. وابن عم خالك مصباح وساكن معاه في نفس العزبة..

مستورة لم تحر جوابًا سلبيًا أو إيجابًا.. وأم مستورة تشعر بابنتها صاحبة التجربتين السيئتين وترفق بها، فتتودد إليها أكثر:

- لو أبوك عايش كان طار بيه من الفرحة..

سألتها بهدوء:

- خالي مصباح راح فين؟

- أخدوه السجن علشان السياسة..

كتمت صدمتها.. دخلت حجرتها في هدوء وأغلقت الباب خلفها وأحكمت إغلاقه بقطعة خشب دوارة معلقة في الباب تحل مكان الرتاج أو السقاطة يسمونها «العصفورة» مثبتة في إحدى الضلفتين بمسمار.. فدارت العصفورة وعادت لمكانها ووضعها الرأسي ولم تغلق.. فاغتاظت مستورة وحركتها ثانية فجعلتها أفقية بين الضلفتين، فدارت العصفورة وعادت لوضعها، فضربت مستورة عليها بقبضتها بغضب فثبتت.. لكن المسمار أصابها في يدها ولم تشعر..

لم تلق بنفسها على الفراش كعادتها بل توجهت ناحية كسرة المرآة التي وضعتها في كوة في طولها تقريبًا.. أسفل اللمبة الجاز.. خلعت طرحتها وقفت أمام المرآة لترى هل رحلت أنوثتها هكذا سريعًا.. هل أسرع بها السن حتى يجيئها رجل في الخمسين.. مررت يدها على جسدها ففوجئت بالدم ينساب على ثيابها من يدها اليمنى.. هلعت.. جرت في الحجرة تبحث عن قطعة قماش تضمد بها يدها فلم تجد، فسحبت طرحتها من على فراشها ولفت يدها بها.. ثم وضعت طرف الطرحة في يدها اليسرى والطرف الآخر التقطته بأسنانها وشدت على يدها بقوة، ثم عقدت عقدة فانقطع الدم..

هدأت واستندت بظهرها إلى الجدار.. سمعت جارهم يترنم بآية من سورتها.. فنكأ جرحها القديم والجديد.. فألقت بنفسها على الفراش.. وانخرطت في البكاء..

بعد أن تم الاتفاق بين رجال العائلة وعبد البديع.. أطلقت أمها زغرودة باردة، كقطة ضربت على رأسها، فهي لا تجيد الزغاريد، بل لا تجيد الفرح.. انفض المجلس وقد اتفقوا على موعد العقد والزفاف بعد شهرين..

***

أخيرًا أنزلتني السيارة عند مدخل أبو وافية، وقد نزلت منها مضطرًا فهي محطتي.. وكنت أرجو ألا أنزل في هذا الجو السيئ بعدما أدفأت مقعدي في السيارة.. لكن كتب عليَّ أن أمشي قرابة ألفي متر تحت المطر، كما كانت تسيرهم من قبل مستورة؛ لكي تصل إلى عزبة الغنام، ولكنها خطوات ليست كالخطوات.. فالطريق موحل.. والسماء تقذف قنابل مائية مصحوبة بموسيقى تصويرية رعدية، فلم أجد في نفسي القدرة على تحدي ذلك الطقس.. خاصة وأني رأيت من هو أفضل مني وأقوى قد انسحب ذليلاً من الطريق متسترًا بسقف ورشة الحدادة.. فلم أشأ أن أدعي البطولة، خاصة وأن بعضهم لوح لي بيده كأنه يحجز لي مكانًا؛ فدخلت وسطهم ورحبوا بي كثيرًا وأفسحوا لي مكان.. وجلست أنتظر انقطاع المطر..

-12-

تم الزفاف من «أبو غرارة» لعزبة الغنام.. أيضًا في هودج صغير كهودجها الذي زفت فيها إلى المرحوم حسن المحلاوي وإلى المحروم حمدان السنهوري[1].

من شاء أن يصل إلى عزبة الغنام قادمًا من ناحية «أبو غرارة» فعليه بالنزول قبل أبو سعيفة بثلاثمائة متر يسارًا من عند منطقة الاتحاد إلى طريق أبو وافية ثم بداية رحلة شرقية نحو عزبة الغنام.. تستغرق بالجمل حوالي الساعة.. ومع اختلاف التوقيت وسط الزفة والطبل والرقص وضرب النار وظلام الليل.. أي قل ساعة ونصف الساعة..

جلست مستورة على سنام الجمل كأنها جالسة على جمرة من نار.. تفرك يدها في يدها وتمسح جبهتها براحتها.. وتزفر بشدة.. وتغمض عينيها ضاغطة

---

[1] من الطريف أن قائد الهودج هذه المرة كان طفلاً صغيرًا صار زوجًا لابنتها الكبرى فيما بعد، ولعلك ستدرك أنه أبي.

بجفنيها.. ثم تفتحهما.. كانت تريد أن تُختم الزفة في لمح البصر وتُلقى إلى قدرها كقذف المنجنيق فتواجهه، فانتظار البلاء بلاء..

فماذا خلف ذلك الظلام؟ ماذا وراء الزغاريد والدفوف؟ أي شيء ذلك الذي يترصد لها خلف ستار هودجها؟ نظرت بجوارها فلم تجد زمزم هذه المرة بل امرأة غريبة أربعينية لا تعرفها.. ابتسمت لها المرأة ابتسامة حانية.. لم تأبه لها مستورة فعادت إلى شرودها، تتذكر أيامها الخوالي مع أحبابها، فمن ضحكات زمزم ومداعباتها ينتقل الخيط إلى حكم روز وهدوئها.. ومن لمسات أبيها ونظراته ينتقل الخيط إلى نقاشات مصباح وإرشاداته..

بعد قليل عادت تنظر إلى المرأة.. فوجدتها لا تزال مبتسمة فأجابتها المرأة على سؤال لم تسأله:

- آني مرسال خالك الشيخ..

انتبهت مستورة باهتمام، فأوضحت أكثر:

- الشيخ مصباح..

انفرج فم المرأة أكثر:

- آني صدقية مراته..

ضغطت مستورة على يدي صدقية كأنها تقول لها: بداية طيبة.. ويكفيني الآن من الأنس روائح أصحابه..

أرادت أن تسأل عنه.. أجابتها السيدة قبل أن تسأل، وسعت أن تستغل تلك الانفراجة المفاجئة في العلاقة والتي كانت تنتظرها منذ خرجنا من أبو غرارة:

- الحكومة سابته..

مستورة انتبهت أكثر وصدقية اشتهت الكلام أكثر:

- هو ما عملش أيتها حاجة بس تقولي إيه بقى ربنا ع الظالم.. المهم إنه خرج بسلامة الله وكان نفسه ييجي بس هو بعافية شوية..

عادت مستورة لشرودها ولكنها عادت أكثر هدوءًا، تذكرت حال أبيها وخالها.. ابتسمت.. وأبوها يقول لها:

- قومي اعملي لنا كوبايتين شاي يا آنسة.. أروي دمي اللي فار..

دنت منها صدقية:

- ربنا يحلي دنيتك يا بنتي.. هتكوني ف عنينا إن شاء الله..

ثم رفعت صدقية التكليف.. ومدت يدها تمسح على رأس مستورة وتهمهم بأدعية تحفظها.. أحست ببرد في راحة صدقية.. ثم أحست دفئًا.. فأصابتها رعشة ثم سكينة ثم أغمضت عينيها مستمتعة باللمسات الحنون..

بعد المرور على عزبة درويش وكردي وعوض الله والشفيعي وعشة عباس والمقابر توقف الركب أخيرًا في فناء عزبة الغنام.. أفاقت على كلمات صدقية:

- حمد الله ع السلامة يا ست العرايس.. نورت الغنامين..

أناخ الغلام الجمل.. حركت صدقية الستار فانفرجت لمستورة فرجة كبيرة.. لم يكن يعنيها أن تنظر.. لكن صدقية أثارت فضولها عندما أشارت لها:

- شوفي أبويا عبد البديع منور إزاي؟

لم تدر مستورة هل تبكي أم تضحك.. عريسها يقال له: «أبويا» من امرأة في الأربعين ماذا ستقول له هي؟

أخذها الفضول رغم زهدها فيما يجري حولها.. فذهبت عينها مع سبابة صدقية.. فرأت الرجال الكبار متراصين على شلت قطنية وفرو أغنام أمام دار عبد البديع، رأته وسطهم يقهقه بملء فيه.. لم تتبين ملامحه في الظلام فالحفل كان على ضي القمر.. أفسحت لها صدقية جزءًا أكبر من الستار.. هالها عدد النساء والرجال المنتظرات في الفناء.. انتزعتها أصوات الطبول والأغاني التي علت بشدة مع وصولها.. فداعبت فطرتها المحبة للزفاف.. فدققت النظر فيما يجري حولها وأرهفت السمع أكثر.. وبدا مثيرًا للاهتمام..

أسرع نحو الهودج مجموعة من الشباب يرتدون الجلابيب والطواقي ويلفون على خصورهم قطعة قماش كأنهم يستعدون لوصلة رقص..

دار الشباب حول الهودج يصفقون على نغمة واحدة، ومن خلفهم دائرة النساء يصدحن بأغنية عرباوية لكن بلكنتهن الخاصة، كأنهن يرحبن بها على طريقتها حتى لا تشعر بوحشة:

يا حمام ياللي ع البنّي

عيناتك لاتنين عاجبني

بانيالك طوفة وبنِّيَّة

وفرشالك من رمش عينيه

وهديتك من عمري هدية

ويطاوعك قلبك وتسيبني

يا حمام ياللي ع البني

عيناتك لاتنين عاجبني

حبيتك وأني لسه عضارة

ودرنا والأيام دوارة

وف أول طيرك تهجرني

يا حمام ياللي ع البني

غطيتك بالريش ممدود

وحميتك م الغِربة السود

وسقيتك من عيني بجود

وفديتك بالعين والنني

يا حمام ياللي ع البني

عيناتك لاتنين عاجبني

بدرالك قمحي على سطحي

وهاديالك من حبة طرحي

وعطيتك من روحي وسني

يا حمام ياللي ع البني

عيناتك لاتنين عاجبني

يا طاير طيَّر سلام

هل فاكر لسه الحمام

من بعد السنين وايام

للعودة لساه مستني

يا حمام ياللي ع البني

عيناتك لاتنين عاجبني

كادت تنفرج شفة مستورة عن ابتسامة مطربة بإيقاع الأغنية بالطريقة الفلاحي.. لكن جفت الابتسامة سريعًا عندما مر بها طيف الليلة الأولى.. وطيف حسن.. انتفضت كأنها تسقط الطيف من على رأسها.. لكن ظل متشبسًا، وهي تضغط على أسنانها كأنها تقتله..

انفرد الغلام سائس الجمل بعمل استعراضي كبير فأخذ من عبد البديع عصاه «المحلب» ورفعها على طريقة لاعبي السرك على أرنبة أنفه ومضى يتراقص بها ليري الجماهير إعجازه، أخذ بعض اهتمامها فتابعتها، وتابعت دفع طيفها.. ثم نزل الميدان رجلان أحدهما شاب من أهلها والآخر كهل في الخمسين من عمره من أهل عبد البديع يبدو عليه الوهن في حركته البطيئة.. البدوي أخذ العصا من سائس الجمل والكهل كان معه عصاه المميزة.. بدءا يتراقصان بالعصوين ويتبارزان بخفة بلمسات سريعة كتحمية للدخول في المباراة.. بعد قليل حميت المبارزة بين الشاب والكهل.. بدأت تأخذ طابعًا جادًّا، فانتبه الرجال أكثر وعلا الصفير والتصفيق..

انتبهت مستورة لتحفيز الجمهور لأحدهم:

- انقر يا شيخ.. انقر يا شيخ..

سقط عنها طيفها وهي تتفرس في ملامح الشيخ.. ثم أكدت لها صدقية حدسها.. عندما ضربت على صدرها..

- شوف الراجل اللي كان صدره مأنون.. بيلعب ولا جدع في العشرين..

فجأة أطاح الشيخ مصباح بعصا الشاب.. فعلا الصفير والتصفيق.. ارتخت أعصاب مستورة وهدأت أنفاسها عندما استدار الشيخ نحوها مبتسمًا ومحييًا بإشارة من عصاه.. فتمنت لو قفزت من على ظهر الجمل لتحتضنه..

-13-

عندما كانت تحكي لي عن عبد البديع صاحب القصة الأطول في حياتها.. استلفتني أنها لم تمر سريعًا على ليلتها الأولى عندما أخذنا الحديث إليها، فلما لم أستوقفها لم تتوقف فانتبهتُ، فسكتتْ، فصحتُ:

- كلا.. بالله عليكِ احكي لي شيئًا أكتبه.. القراء بهذه الطريقة لن يكملوا الرواية.

ضحكت.. قالت:

- عايزني أكشف ستري يا ابن الـ..؟!

- هذا أدب..

- ده قلة أدب..

- إن لم تحكي سأحكي أنا بخيالي..

فصمتت تفكر..

فأردت أن أساعدها فقلت لها:

- الأول كان ثورًا؛ فماذا عن هذا؟

صمتت برهة.. قالت باسمة:

- كان تيس،

لم أفهم الجملة في البداية، بل ظننتها تشتمه، لكن عندما قارنت بين معناها ومعنى الثور ومعنى العنزة، وبين سعادتها هنا وألمها هناك أدركت أنها أديبة بصدق وليست كحفيدها المدعي، وأرادت أن تمدح هذه الليلة التي علمت أنها كانت أسعد ليلة قضتها معه، أو لم يكن به ميزة إلا تلك!

فتح الباب برفق.. نظر إليها مستطلعًا.. لمح في عينيها ذعرًا لم يكن له مبرر من وجهة نظره، خاصة أنها ثيب.. أغضى عنها بذكاء، وتلهى بعصفورة الباب الخشبية التي تشبه عصفورة بابها.. وقال:

- العصفورة دي بقالها ستة معلقة.. لا هي عايزة تقع ولا هي عايزة تثبت..

حاول أن يغلق الباب خلفه فاشتبك المسمار المدقوق في وسط العصفورة في طرف جلبابه، فاندلعت بينه وبين العصفورة معركة ذكرتها بمعركتها معها منذ أيام، فقال مغتاظًا للعصفورة:

- يا بنت الَّذين..

أخذ يدقها في انفعال مصطنع.. انتبهت له مستورة.. فجذب طرف الجلباب ينقذه من المسمار فتمزق طرف الجلباب، فضحكت مستورة.. أسرته ضحكتها لكن لم ينظر نحوها حتى لا يفسد أنسها.. استمر في الحديث مع العصفورة ليحل مشكلته معها.. وبعد أن كان قد خلص طرف ثوبه من أسر

المسمار، شبكه بخفة مرة ثانية في رأسه حتى يفوز بضحكة أخرى فيزداد أنس مستورة..

ضحكت مستورة من حاله.. نظر إليها هو الآخر ضاحكًا.. فخجلت وأطرقت.. اقترب منها.. عاد إليها ذعرها.. خفق قلبها.. شعر بها فلم يلمس جسمها.. بل جلس على طرف الفراش بعيدًا عنها.. وأراد أن يأخذها من ارتباكها فطوف بها بعيدًا... فحكى لها حكايته مع والدها وكيف كان يعامله:

- الشيخ عبد الرحمن كان زي أخويا الكبير الله يرحمه.. تعرفي إنه ابن خالي داير؟ وإن خالك الشيخ مصباح يبقى ابني عمي لزم..

أنصتت هي أو ادَّعت ذلك.. وهو استمرَّ في تمثيليته.. فحكى أنه زارهم قبل ذلك منذ عام ولم يرها هناك..

انتظر كي تجيبه أين كانت لكن كان حياؤها لا يزال يلجمها..

فاستطرد بأن له أقرباء آخرين في المسين يزورهم كل شهر تقريبًا..

ظل يحكي ثم يسألها سؤالاً فلم تجب في السؤال الأول.. وأجابت الثاني على استحياء.. فحكى ثم سألها ثالثة فأجابت بصوت خفيض.. ثم حكى فتدخَّلت هي بسؤال.. فلفته سحرها وكاد أن يتعجل الثمرة لكنه ضبط نفسه فأجاب واسترسل.. حتى آنسته وآنسها.. ثم كانت أجمل ليالي عمرها..

وكانت شحنة طيبة أسعدتها لتستعد للقادم مع العجوز الوسيم الفكه القوي العاقل حينًا، والمستهترِ أحيانًا.. فمن حظ مستورة الجيد وربما السيئ أن عبد البديع لم يكن يجيد سوى معاملة النساء فهو صاحب كلمات معسولة وبديهة حاضرة ومجاملة ذكية.. وليس إلا..

-14-

عبد البديع علي الغنام –هذا هو اسم الرجل، لكن غيرت في الاسم الأول مرة أخرى لحاجة عائلية، وأيضًا غيرت في بعض تفاصيل قصته لحاجة أدبية- رجل تخطى الخمسين، وسيم إلى حد ما، أو كان وسيمًا، فقد أصيب في حادث ففقئت إحدى عينيه الخضراوين، وهذا اللون لا يتكرر كثيرًا لدى الفلاحين، ويبدو أنه كان مزهوًّا بهما فخسر نصف ما يملك من الحسن.. كما خسر كل ما يملك بعد ذلك من الأرض والمال..

ورث عن أبيه أرضًا كثيرة وعن زوجته الأولى مالاً كثيرًا.. هكذا أخبرتني ستي وديدة أخته من أمه[2].

وأخبرتني مستورة في أحد أحاديثها الطوال المملة، أنه كان يملك في مطلع شبابه حوالي أربعة وعشرين فدانًا غير الأموال، ولـ «كان» هذه قصة أختصرها في أنه «كان» به بعض الاستهتار -رحمه الله- فقد خسر الأفدنة

---

[2] توفيت رحمها الله أثناء كتابة هذا العمل.

بقطع حشيش، وكذلك الأموال، فقد كان صاحب مزاج -رحمه الله- يعيش يومه كما ينبغي -رحمه الله- كان متزوجًا من هانم بنت «إسكندر باشا» عمدة عزبة إسكندر، ولكنها ماتت سريعًا وتركت له ولدًا، وعددًا من الأفدنة، فلم يرعَ الولد ولم يحافظ على الأفدنة -رحمه الله- وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وحكت لي مستورة أنه عندما تزوجها كان لا يزال يملك بعض القراريط، خاصة وأن الرئيس عبد الناصر كان قد وزع أراضي الإقطاعيين على الفلاحين، ورفع الظلم عن مظلوميهم، حسب ما نقلت مستورة عن أغاني السيد عبد الحليم والسيدة أم كلثوم.. لكن بعد الزواج سرعان ما تبدد ما كان تحت يده حتى يكون ذلك سببًا دراميًّا منطقيًّا للدموع المستورية في الأيام القادمة.

كان عجوزًا يعيش بين أولاد إخوته في حوش كبير يتوسط العزبة.. لكلٍّ داره لكنهم شركاء في الفناء وذلك يشبه حال الربع في المدينة.. ففي بعض ليالي الصيف يجتمعون فيه لطعام العشاء..

ومن ناحية وضعه الاجتماعي وسطهم فقد كانوا يعدونه كبيرًا لهم أو أحد كبرائهم، لكن مع وقف التنفيذ.. فهو كان جديرًا بذلك منذ سنوات لكن بعد الحادث الذي فقئت فيه عينه وراح نظرها وضعف نظر الأخرى وتأثرت أذنه.. انسحب سريعًا إلى الشيخوخة.. فلما طعن في السن، وكان بطبعه التحرري لا يحب التقيد بالألقاب والمواقع الاجتماعية، لم يعطه أولاد أخيه الإجلال الذي يستحقه رجل في مثل سنه.. بل منهم من خطط للاستيلاء على ما في يده من أرض ومال.

باختصار بعد عام من الزواج من «وش الخير» مستورة كان عبد البديع قد باع كل ما يملك وصار «يا مولاي كما خلقتني».. وبالطبع مستورة ليست سببًا في ذلك، ولكن لحسن حظها أنها كانت زوجته إبان ذلك التدهور المالي والعقلي والنفسي والبدني للمدعو عبد البديع..

ذاقت مستورة الألم جملة في جرعة واحدة عندما فقدت حسن في ليلة عرسها.. ثم ذاقت المرار مرات عندما عاشرت السنهوري، فاكتسبت مستورة مناعة ضاعفت من عزمها وقوتها والقدرة على التحمل أمام استهتار عبد البديع وتصرفاته الطفولية والفقر الذي ألقاها فيه حوالي خمسين سنة من عمرها، والبقية تأتي.. ولكنها كانت قد نبت لها درع تحميها من البقية هذه.. فأدركت حكمة ربها ولطفه بها.. فالأشرف منها عُذب ونال من بلاءات الدنيا ما نال.. فغلام وديع وسيم رقيق ألقاه إخوته في بئر مظلم وتركوه يصرخ، صيره الله بعد سنين عزيز مصر المتصرف في أموالها.. ذلك بالصبر.. هكذا فسر لها الشيخ عبد الرحمن سورتها المفضلة، وأعاد الشرح نفسه الشيخ مصباح.. فصارت تسمعها وتعشقها وتأنس بها.. فكلما ضاق بها الحال أرسلت إلى شبانة تلميذ الشيخ مصباح ليقرأها عليها المرة بخمسة قروش..

- 15 -

فوجئت بالشيخ مصباح وزوجته أمامها يوم الصباحية.. يحملون معهم صباحية العروس فسبقا بذلك أمها.. تحدث إليها وضحك وأضحكها.. وبشكل عفوي لم تستطع منع نفسها، فقد دارت الصور القديمة المدفونة في قاع قلبها، فتتابعت وعند التتابع استيقظ في ذهنها مشهد حسن تلميذ الشيخ..

هرب الشيخ مصباح بنظره وتلهى في ضحكات مع عبد البديع، وقطعت صدقية خيوط الماضي عن مستورة بزغرودة تذكرها بأنها الآن بين ذراعي عبد البديع.. فأسكتت مستورة ذاكرتها قبل أن يخونها وجهها، وضحكت خجلة من زغرودة صدقية، وجلست معها تحادثها هامسة.. حتى وصلت أمها من «أبو غرارة»..

اهتم الشيخ مصباح بمستورة بشكل كبير.. يدخل ويخرج من عندها في أي وقت، وتزوره هي في أي وقت، فالناس يعلمون أنه خالها من الرضاعة، وكانت إذا ما نشبت بينها وبين عبد البديع مشادة كبيرة تذهب إلى الشيخ

مصباح.. وكانت سعيدة بذلك واعتبرته تخفيفًا من ربها أن يكون رجلاً من ذويها معها في منفاها الجديد.. علاوة على موقعه هو الآخرين الناس كشيخ ومحفظ للقرآن..

-16-

البكرية هي فاطمة، وفاطمة هذه هي ابنة مستورة، وابنة مستورة هذه هي أمي..

بعد عام من زواج مستورة بعبد البديع حسب ما هو مسجل في شهادة ميلاد فاطمة أن مستورة أنجبت طفلتها الأولى عام 1963، وكانت مستورة قد بلغت من العمر - حسب شهادة ميلادها المزورة - 27 عامًا.

بالطبع لم تكن مستورة سعيدة بطفلتها، فمن ناحية كان يوم مولدها هو اليوم نفسه الذي اختفى فيه الشيخ مصباح بعد أن قبض عليه عسكر الحكومة بتهمة المشيخة للمرة الثانية.. ومن ناحية أخرى فإن الرهان في هذا الوقت لم يكن إلا على الولد، فهويساوي عند السيدات قبل الرجال ألف بنت.. خاصة لدى عرباوية مثلها تريد أن تثبت كفاءتها وسط جاراتها، وتزيد من الأسباب الخارجية التي تفتح لها أبواب السعادة وتعلي مقامها، فإنجاب الأنثى عندهن يعني نقص الكفاءة.. فضلاً أنها كانت تريد أن تنحت لقبها على ذكر فيقال لها يا أم فلان.. وليس أم فلانة..

حمدت مستورة ربها.. وقبلت راحتها ظاهرها وباطنها.. ورسمت بسمة مصطنعة على شفاهها وبحثت عن أية ميزة في إنجابها أنثى تتصبر بها حتى يأتي البديل، فرأت أن أكبر ميزاتها أنها ستعلمها الزغاريد كما كانت تشتهي، وهذا ما لا يتوافر لدى الولد..

أما عبد البديع فلم يعنه الأمر كثيرًا، لا لسوية في طبعه أو لأنه لم يكن يفرق بين الذكور والإناث، ولكن لأن الحياة لم تكن تعني عنده إلا هو.. عبد البديع فقط.. ومن بعده فلتحترق الدنيا بأسرها.. يقول عليه الناس أنه وأنه.. لا شيء.. أيضًا كان عنده الذكر من قبل فرماه للحياة ولم يهتم به.. علاوة على أن عبد البديع تيم بطفلته من أول أن اطلع على ملامحها فهي تشبهه إلى حد كبير في بشرتها وعينيها..

لم تردني تفاصيل كثيرة من المدعوة مستورة في هذا العام حول علاقتها بزوجها.. وقد يكون ذلك راجعًا لضعف الذاكرة لديها؛ فبعض التفاصيل داخل هذه القصة اضطررت أن أخمنها تخمينًا، وذلك «فذلكة» مني في تحليل المقدمات وربطها بالنهايات.. والشيء الذي تذكره مستورة في مذكراتها غير المكتوبة أن الحياة مع عبد البديع كادت تكون أجمل لولا ضيق ذات اليد ولولا استهتاره البالغ.

-17-

عرف أهل عزبة الغنام مستورة بأنها زوجة كبيرهم -ولو من الناحية النظرية- فاحترموها وأظهروا ذلك، وكثير من النساء بالغن في ذلك الإظهار.. وصرن يناديها «يا عمة».. أما هي ففي جو عزبة الغنام الغارق في الريفية أشبعت رغبات كثيرة حُرمت منها في دمنهور و«أبو غرارة»، فإن كان العرب يبجلون المرأة هم الآخرون، لكن بين الفلاحين التبجيل أكثر والإيمان أنقى، وتجد المرأة في الحقل أو في الطريق قد يحادثها جارها بسهولة ودون ريبة، حيث يتخطى الود حدود الريبة، وتكون العشرة لها أبعاد أنقى من العلاقة المريبة بين الجنسين وحدودها القاتلة كما عند العرب.

أيضًا للمرأة في الفلاحين سطوة في البيت ورأي يحترم، وقلما يستطيع رجل أن يخرج عن هذا التقليد، وإن كان الظاهر غير ذلك، بل كثير منهم يعلنونه عندما يجدُّ أمر فيقولون: «هنشور على العيال».

في هذا المناخ تقرب إلى مستورة الكثيرات كي ينلن ثقتها وودها، فهي غريبة وستستمع لأيهن وتهز رأسها موافقة وهي تلعن في أختها، ولن تستطيع أن

تكشف الكاذبة فيهن. وإن استطاعت فلن تفعل، بل ستصدق الجميع بالتأكيد، وستمصمص شفتيها متداهشة، أو تهمهم مؤيدة: «يقطعها يا ختي».

أيضًا من وسط هذا الزحام النسائي حولها اصطفت مستورة لنفسها من على شاكلتها في الود والهدوء، فتعرفت إلى صديقتها الجديدة صفية فهي جارتها اللصيقة.. امرأة حنون طيبة للغاية زوجة رجل طيب من أهالي العزبة، يعيش منعزلاً، خاصة وأن فرعه شبه منقرض في العائلة.. فاستبدلت صفية بزمزم الغالية كما سبق واستبدلت زمزم بروز الأغلى، وصارت صفية هي مستودع سرها الجديد والصديق المنجد في وقت الشدة..

أما عن علاقتها بعبد البديع فكانت هادئة صافية طالما لم تناقشه في شأن المعيشة التي تنحدر بهما يومًا بعد يوم، فهو ضحوك فكه في كثير من الأحيان مع كل الناس، وكذلك كان مع مستورة، لكنه فلاح جاهل في النهاية، فضلاً عن ذلك زوج وأب فاشل، فهو يبقى وديعًا ضحوكًا إذا ما بدت الدنيا حوله ساكنة لا تتحرك وليس فيها ما ينغص عليه انطلاقه.. أما إذا حدثته مستورة عن واقعهم الذي يزداد سوءًا ساعة بعد ساعة.. وعن خطأ تصرفاته مع أولاد أخيه وتغافله عن تلاعبهم، وعن الآتي وما ينبغي الاستعداد له، وعن ابنتهم التي لا بد أن ينظروا إلى مستقبلها، انتفض وصاح صياح الديكة كي يسمع صوته الهدار من حول الدار، كي يعلموا أن عمهم عبد البديع يفعل الأفاعيل بزوجته، وأحيانًا كان يضربها إن لم يخفها صوته العالي.. فيسكتها.. فتنسحب من أمامه مؤثرة بعض السلامة وتغلق الموضوع.. وتحكم إغلاقه، ثم لا تلبث أن تعاود.

-18-

سألتها: كيف تواتيك القدرة وأنت في هذا الشقاء أن تحلمي؟

قالت لي: ما كانش قدامي غير الحلم أو إني أموّت نفسي.. وأنا بحب الدنيا رغم اللي فيها.. ونفسي أختم حياتي بزفة وزغرودة من حنك فاطنة.. مش أموت ملعونة!

حاولت وشكر الله لها سعيها، أن تزرع حلمها في ابنتها الوحيدة فاطمة.. صحيح هي أنثى والرجاء في الإناث في هذه البيئة قليل.. لكن ما المانع أن تحفظ القرآن عند الشيخ مصباح بعدما يعود بالسلامة من محبسه، ويقال لها الشيخة فاطمة ذهبت.. الشيخة فاطمة عادت.. وتدخل المدرسة وتكون الأولى وتحصد الجوائز وتحقق الحلم.. لم لا؟

أقول أنا: لا.. لأنها بنت عزبة الغنام.. رجال ونساء مزروعون في طينهم لا يرون في غير الأرض عزًّا ولا كرامة، ولأن والدها هو عبد البديع الغنام فلاح عاطل بالوراثة.. لا يملك من الدنيا غير عين خضراء تندب أختها.. فقير في كل شيء حتى أحلامه..

لكن مستورة لها رؤية أخرى.. فإن كان هذا هو حال أبيها وعائلتها.. فالأحرى أن يعوضها ربها الكريم فيها كما عوّض نبيه يوسف..

أنصتت مستورة لحديث قلبها ولم تستمع لعقلها.. فألبست فاطمة وهيئتها.. فبدت جميلة تشبه أباها كثيرًا.. وقد أخذت منه عينه الجميلة، وفُضلت عنه بأن لها عينين كاملتين..

خرجت فاطمة تخطر كالطاووس، وأمها تنظر لها تتفقدها من ظهرها معجبة مزهوة بها.. وتقول في نفسها: هذا قدها وهي في السادسة فكيف سيكون حالها عند البلوغ.. إن صبية بهذا الجمال لا بد أن يكون لها شأن!

لكن فاطمة رجعت بعد قليل لتؤكد لأمها أنها ابنة عبد البديع.. فالملابس لطخت بالطين من كل جانب.. والوردة التي كانت أعلى الصدر مزقت كل ممزق.. حتى الحذاء عادت تحمله في يدها..

امتصت مستورة شهيقًا ونفثت زفيرًا.. وقالت في نفسها: هذا لأنها لا تزال طفلة لا تعرف كيف تعتني بملابسها.. عندما تكبر ستكون أجمل البنات..

أدخلتها مستورة المدرسة.. ألبستها المريلة البنية.. شيعتها واستقبلت حلمها تدعو ربها أن يحققه فيها.. كان عبد البديع شغوفًا بفاطمة، يضاحكها ويلاعبها ويأخذها معه أينما ذهب؛ لذا لم يعترض على إرسالها إلى المدرسة، رغم ما ستحتاجه من مصاريف.. هو بالطبع لن يدفع منها شيئًا.. ورغم أنه كان يعرف أن درجة ذكائها أكبر بكثير من أن تدخل مدارس!

مكثت فاطمة في المدرسة عامًا واثنين، وأمها تظن أنها منضبطة في مدرستها تذهب كل يوم، حتى ذهبت لتسأل عن حالها في مدرستها فلم تجدها.. فقد كانت فاطمة تأخذ الطعام الذي تعده لها أمها لتأكله وقت الفسحة، فتهرب به في الغيطان فتجلس ما شاء الله لها أن تجلس، وبطبيعة الحال كانت

الجلسة تطول بحسب نوع محصول الحقل الذي نزلت فيه، ويا حبذا لو كان الحقل الذي نزلت فيها حقل فول! فهنا الجلسة تطول وقد تتطور إلى نعاس.. بعد أن تنتهي فاطمة من تسليتها ونومها، تخرج من الحقل متجهة إلى كوبري إسكندر فتنزل الدرج المؤدي إلى أسفل الكوبري فتأكل ما أعطتها أمها من غداء، ثم إذا حان موعد الخروج من المدرسة.. انصرفت مع البنات في طريقهن إلى العزبة..

بعد أن أعطتها العلقة المناسبة أخرجتها مستورة من المدرسة لتوفر مصروفاتها، ونزعت من على ظهرها رقم حلمها وانتظرت غيرها كي يحمله..

فقدت مستورة في فاطمة الأمل.. ولم يسعدها فيها سوى أنها كانت تحسن الزغاريد في سن مبكرة.. فكانت مستورة كلما ضاقت عليها نفسها وضاق بها الحال طلبت من فاطمة أن تسمعها زغرودتها الساحرة.. حتى إن جاراتها كن يأتين يسألنها ويقلن مقدمات التهاني:

- ألف مبروك يا عمة..

فتقول تنكر علاقتها بالأمر أو أن هناك ما يستدعي المباركة:

- مقصوفة الرقبة ما بتسكتش..

-19-

غراب أبيض في إحدى قدميه حلقة من ذهب!

حلم غريب لم تفهم مغزاه، فهل هناك غراب أبيض؟ وما تعني حلقة الذهب؟

أخيرًا رأت للزمان أسنانًا، فقد انفرج ثغره عن ابتسامة وقور.. فحملت مستورة حملها الثاني.. شعرت أنه ذكر، تشعر بقوته الناشبة في أحشائها.. بشرتها سيدة مباركة من عزبة الشاربة عندما حكت لها حلمها، قالت:

- هيكون صبي يجيبلك الغارة من تاني حارة..

يوم الوضع التفت حولها جاراتها.. كانت عفية وزادتها سعادتها عافية.. أجلست فاطمة بجوارها، وقالت لها:

- هاغمض عيني يا فاطنة.. لو كان صبي زغردي..

ارتقبت فاطمة نوع المولود بشغف وهي تنظر بين يدي القابلة، وتمنت أن يكون ذكرًا حتى تفسح لزغرودتها المجال وتعرض موهبتها على الجارات لأول مرة بكل حرية..

ثوان معدودة.. ترقبت فاطمة.. ركزت في المكان الذي تفرق به بين الذكر والأنثى.. انطلقت زغرودة فاطمة الرائعة الغريبة من طفلة في سنها.. فكانت نشوة مستورة بزغرودة فاطمة تعادل نشوتها بخصوبتها وكفاءتها في أن تلد الذكر..

في «السبوع» نثرت عليه الملح والحبوب.. هزته في الغربال حتى دوخته، ثم أخرجته ووضعته على الأرض بجوارها، وأمسكت بالغربال وأقمته رأسيًا على جنبه، واستعدت أن تدفع به وهي تهمهم بدعوات، ثم طوحته في الصالة أمامها كي ترى كم دورة سيدور وإلى أين سيصل وبناء عليه تستبشر بطول عمره.. جرى الغربال دار بسرعة حتى خرج من الباب إلى الشارع.. زغردت فاطمة ثانية، وانتشت مستورة فمعنى هذا أن ولدها سيعيش عمرًا مديدًا..

رغبت في أن تسميه على صاحب سورتها «يوسف».. لكن عبد البديع رفض وأراد أن يسميه عبد الناصر تيمنًا بالزعيم وقتها.. لم يعجب مستورة الاسم.. ولو كانت ولدته قبل الهزيمة لتمسكت هي بذلك الاسم...

مرت أيام غشيتها السعادة ولانت في يدها الظروف من فرط سعادتها، لم تتشاءم ككل مرة لأنها رأت الغربال بعينها ينطلق من فتحة الباب إلى الشارع! لكن أرادت مستورة وغربالها شيئًا وأراد الله شيئًا، فلم يدم عمر الرضيع سوى أسابيع، فقد كان ضعيفًا هزيلاً ولد وولد في أحشائه داء خبيث، فمات عبد الناصر.. الولد والزعيم..

-20-

انزوت بنفسها في حجرتها.. وململت جسدها على فراشها، كأنها تحتمي من برد قارص.. ضغطت على أضراسها.. أغمضت عينيها.. ضغطت عليهما بجفنيها، ثم اشتدت في الضغط كأنها تريد أن تعتصر مآقيها.. تشعر بألم شديد في رأسها.. ناشر ينشر في جبهتها.. تضع يدها لتغطي وجهها كأنها تريد أن تكتم سريان الألم، فتخنقه حيًّا عند جبينها، ثم تضع وجهها بين ركبتيها المضمومتين تعتقد أنها تستطيع أن تهرب برأسها من رأسها.. لكن إلى أين؟

أخيرًا أخرجت صوتًا كحشرجة ذبيح:

- ابني.. ابني

تقول ذلك ثم تنخرط في البكاء.. وعبد البديع لا يستطيع إخراجها من حالتها، فيربت على ظهرها ثم يتركها ويغادر..

تكورت على نفسها ثلاثة أيام تبكي وتنوح.. النساء جئن يواسينها ككل يوم.. منعتهن صفية من الدخول وطلبت تأجيل الزيارة فمستورة لن تستطيع النهوض لمقابلتهن.. لكن قبل أن ينصرفن.. خرجت صاحبة سبعة الأرواح

من حجرتها وقد شدت منديلها على جبينها فبدت عيناها بلا بؤبؤين، وقد انتفخت أوداجها وارتخى جفنها.. تحول إليها النساء بنظراتهن المشفقات، فرمت بنظرها إلى صفية:

- علقي ع الشاي يا صفية..

تحركت صفية نحوها تريد أن تسندها.. فأبعدت مستورة يدها بلطف وأشارت لها إلى الكانون.. وقالت:

- آني بخير.. الحمد لله..

النساء بادرنها:

- قدّر ولطف يا عمه..

- الحمد لله ع اللي يجيبه ربنا..

-21-

رآها عبد البديع قد أفاقت وعادت لسيرتها وإن ظلت تعلو وجهها كآبة الفقد، فلم ينتظر، فقد انتظر كثيرًا فأخبرها بخبره..

- إحنا هننقل بير العسل يا مستورة..

لطمت خديها فلطختهما بالعجين الذي بين يديها..

فقد قام عبد البديع ببيع الدار لابن أخيه «مهنا» في إحدى جلسات الحشيش، وأخذ عبد البديع في مقابلها قطعة أرض وبيتًا في «بير العسل» في نواحي «أبو غرارة»، فظن عبد البديع أنه قد حقق بتلك الصفقة نصرًا كبيرًا.. لكن هو لم يفعل شيئًا سوى أنه نفى نفسه وزوجته وطفلتهما نفيًا إراديًا لم يكن يستوعب عواقبه..

صُدمت مستورة وخشيت على نفسها أن تصيبها لوثة من أفعال زوجها المارق، فقد ضيعها وضيع طفلتها وصاروا في حكم المشردين..

لم تجد مستورة من الثورة بدًّا فصاحت في وجهه على تصرفه الساذج الغبي.. وسبَّت ولعنت أولاد أخيه الذين يتلاعبون به.. بالطبع لم يعجبه الكلام، فهي في النهاية أنثى لا يحق لها أن تسخر منه أو تستهزئ بقراراته، وإن سخرت منه أمة لا إله إلا الله، و«مرمط» أولاد أخيه بكرامته الأرض.. لكنه بذوقه شبه العالي لم يشأ أن يرد عليها بعنف فهي لا تزال متعبة من بعد مصابها في وليدها.. لكنها مع الأسف جنت على نفسها بجرأتها، فقد أطالت وصلة التبكيت أكثر من اللازم، وسخرت منه أكثر من اللازم، ورفعت صوتها أكثر من اللازم.. فاندفع الرجل واضطر اضطرارًا أن ينتفض مسترجلاً ويسكتها بقبضته.

جمعا المتاع المكوَّن من مرتبتين وسرير خشبي وحصيرة وصندوق خشبي أشبه بالنعش، كانت تضع فيه الملابس، وصندوق أصغر منه قليلاً كانت تضع فيه اللبن والسمن، ولمبة جاز وسبرتاية جاءتهم هدية من أحد جيرانهم، ووضعوا ذلك كله على عربة كارو استأجراها من زوج صفية وعلق عبد البديع حماره فيها، واستأجرا زوج صفية نفسه كي يوصلهم..

ارتحل الزعيم إلى بير العسل وارتحلت معه مرغمة.. تحركا كأنهما يتبعان جنازة.. جلست هي في مؤخرة العربة وجلس هو بجوار سعيد.. أخرج ورقة بفرة وأخرج باكو الدخان.. ملأ الورقة ثم لفها ثم أحكم إلصاقها بأن مرر لسانه عليها.. ثم أشعلها ولم يدع سعيد إلى المشاركة..

الصمت قيد الرجل وزوجته، ولحسن حظهما كان سعيد بطبيعته خلقته تجربة أخرس، فشاركهما حديثهما الصامت ولم يأبه بتحريك المياه الراكدة، حتى إنه لم يزعج الحمار بأي كلمة تشجعه على الحركة رغبة منه في الحفاظ على موجة الصمت تلك..

عند مرورهم على عزبة أبو واقية لمحوا الصغار والكبار يهرولون ناحية إحدى الفيلات تغمرهم سعادة وبعضهم رافعًا يده يكبر.. ثم انطلقت زغرودة من خلفهم.. ثم في مغامرة غير محسوبة للصموت سعيد حرك لسانه وسأل أحد المارين:

- فيه إيه يا عم؟

- بيقولوا ف راديو العمدة.. إن مصر دكت إسرائيل.. وجابت ضلفها.. وهتولع في تل أبين..

انطلق الرجل.. عبد البديع وجدها مدخلاً جيدًا لفتح ملف جديد مع مستورة فاستدار لها باسمًا:

- بشرة خير يا مستورة.. آني قلت السادات ده ولد!

مستورة لم تلتفت له، وألقت بعنقها ناحية الترعة، فتنحنح عبد البديع واعتدل في جلسته يحاول أن يواري إحراجه أمام سعيد.. أما سعيد فلم يفهم شيئًا، لكنه شعر بحدسه أن هناك أمرًا بدهيًّا معلومًا لدى الجميع بخصوص ما قاله الرجل، فلم يشأ أن يسأل حتى لا يصيبه ما أصاب عبد البديع من إحراج، فقط كان يريد أن يعرف «ما تل أبين هذا؟».. لكنه استعاذ بالله من الشيطان، وضرب حماره وصاح بقوة:

- حا يا حمار..

صوبت مستورة عينيها نحوه بامتعاض وهو ينفث الدخان، كأنها تعاين نوع شعورها اتجاهه.. هل تحبه أم تكرهه..لا هذا ولا ذاك.. هو فقط قدرها الذي لن تستطيع الفرار منه وعليها أن تتعايش مع مصيبتها، وتمسك أعصابها كلما رأته مزهوًّا بذاك الانتصار «العبيط»..

-22-

وصلا هناك.. فوجدا «بير العسل» بئرًا من الخراء –عفوًا هذه عبارة مستورة- ومستورة كانت تعلم ذلك قبل الرحيل؛ فهي تعرف المكان جيدًا وعاشت بجواره زمنًا، فهو خلف أبو غرارة بمسافة قليلة، بل إن الترعة التي تمر من أمامه هي نفسها التي تمر من أمام أبو غرارة.. ومستورة لم يعنها أنها بهذه النقلة قد صارت قريبة من أمها.. فهي الآن صارت سيدة لبيتها ولها أسرة تريد أن تبنيها، ولها زوج متميز بين الرجال يهدم كل ما تبنيه، فكل ما يعنيها هو أن تستقر في حياتها الجديدة، ويكفيها أن يكون أولادها هم كل أقاربها، لكن بتركهما عزبة الغنام التي كانوا فيها وسط عائلة وجيران مصانين -برغم قلة ذات اليد وتلاعب أولاد أخي عبد البديع به- فقد تعرضوا للخراب.. فالوطن الجديد هو أرض سيئة وغريبة وجيرة قليلة وبيوت متباعدة وماء قليل.. وكل هذا يعني الضياع.

وضعت مستورة متاعها، وألقت بغضب ما لم تخف كسره في بهو الدار.. وجدت الدار مفتحة من كل جانب، وهذه ميزة في نهار الصيف، حيث يدخل

الهواء من نافذة ويخرج من أخرى، ولكنه كارثة في ليل الشتاء، فالبرد يدخل من النافذة ثم يتجه إلى العظام مباشرة فينخر فيها كالسوس..

بالبيت حجرتان وصالة متسعة وزريبة في الخلف وليس بها كنيف.. نظرت إلى زير الماء الذي مال على الحائط في أحد الأركان كأنه نام واقفًا.. سعت نحوه تستكشف حالته.. تعثرت بغطائه الخشبي الملقى بجواره.. نظرت في الزير بحذر فوجدته قد صار مقبرة للصراصير والأبراص، وأوشكت جدرانه أن تتصدع من شدة الجفاف، ولم يتمكن من العيش فيه سوى عنكبوت نسج بيته كغطاء محكم له..

الجدران بالطوب اللبن كان الساكن القديم قد طلاها من زمن فتساقط كثير من الطلاء بعوامل الرطوبة والزمن، فظهر الطوب الطيني من خلف الطلاء، أما الأسقف الخشبية قد سرحت فيها جيوش السوس.. وبعضها مشروخ وناتئ ومتدلي..

مضت تدور في الدار ذهابًا وإيابًا عساها تألفها وتطفئ النار التي في صدرها.. لكنها لم تستطع.. فقط تحاول أن تحمد الله على ما أصابها كعادتها.. ولا تنسى أن تدعوا بالهداية لزوجها وأن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما سيأتي بالتأكيد..

نهضت في الصباح فلم تجد عبد البديع في الدار.. تركت فاطمة نائمة في الصالة وخرجت تشم هواء القرية وترى ما فيها من البشر وتستكشف موقعها بين الدور.. الطرق خالية إلا من رجال على مدى الشوف يعملون في حقولهم.. حيث كانت الدار على أطراف القرية وحيدة شريدة كحالها هي.. دارت حول الدار دورة عسكري يؤمن موقعه.. تعثرت في آثار براز حديث الولادة ابن يوم أو يومين، فتصلبت ممتعضة.. ثم رأت آثارًا أخرى لبراز

متراصة بشكل منتظم تحت الجدار الخلفي للزريبة منها القديم ومنها الحديث.. فقد اتخذه أهل الدار السابقين والجيرة المارين كنيفًا استراتيجيًّا تتوفَّر فيه كل مميزات الكنيف من هواء رطب وجدار ساتر وطوب ناعم.. تأففت واستدارت تسب وتلعن..

دخلت لتوقظ فاطمة من نومها الثقيل.. صاحت فيها بغضب.. نهضت المسكينة تفرك عينيها الخضراوين، تلقت الأوامر بهدوء؛ لأنها تعرف أمها ساعة الغضب.. أخذت مستورة حلتها الكبرى وحملت فاطمة حلة أخرى وخرجتا إلى الترعة، وملآ الحلتين مرة واثنتين وثلاثة. فنظفتا الزير وملأتاه، وغسلتا المواعين، ورشت مستورة أمام الدار عساها تجذب الملائكة إلى تلك الخرابة.. ثم أخرجت مستورة السبرتارية وسكبت في طاستها الجاز ثم ضبطت فتائلها، وبرمتها ووضعتها في مكانها، ثم فكرت أن توقدها لتضع طبيخها.. فوجدت أن السبرتاية لن تسعفها بنارها الهادئة، فأرسلت فاطمة تبحث لها عن حجارتين كبيرتين، عادت بهما.. وضعتهما متوازيتين وصنعت موقدها.. وأشعلت النار..

عند الظهر جاءها عبد البديع معه أحد الزراع يتناقش معه في أجرة الزراعة والعمل في الحقل، فهو لا يستطيع أن يعمل في الحقل وهو في هذه السن.. سمعت مستورة اتفاقهما ونقاشهما وفصال عبد البديع.. أدركت الأمر.. اقتربت منهما وأشارت إلى عبد البديع من بعيد.. فجاءها غاضبًا يظهر رجولة أمام الرجل..قالت:

- هنشتغل أنا وانت وفاطنة ووفر الفلوس دي.. إحنا ف عرض ميلم..

أراد أن يتشنج ويتعصب ويغضب، كي يؤكد ما ادعاه، فأسكتته:

- اللي هتدفعهوله هات به دخانك.. وأهو نبقى وفرنا.. والأرض صغيرة ومش مستاهلة..

بلع عبد البديع لعابه، فقد أقنعه الكلام المعقول.. فالتفت للرجل:

- طيب روح إنت يا سلامة وهبقى أعدي عليك..

مستورة صارت تعلم كثيرًا من أمور الزراعة، بعد حوالي عشر سنوات قضتها في عزبة الغنام بين الفلاحين والفلاحات.. والآن هي مستعدة أن تعمل في الحقل وتساعد عبد البديع، وإن لم يكن قد خطر ببالها يومًا أن يؤول حالها إلى ذلك.. لكنه القدر..

اشترى عبد البديع فأسًا واحدًا على أساس أنه هو الذي سيعمل به.. لكن الفأس كان من نصيب مستورة بالطبع!

حاولت المرأة الحديدية من جديد.. فقد تعودت على السقوط ثم الصعود، وكانت الأيام الأولى هناك أشد قسوة من أي وقت مضى.. خصوصًا أنها لم تجد شبانة ليقرأ لها سورتها ويروي ظمأ قلبها، ويؤكد لها أن النهاية أحلى..

كعادتها تعلمت مستورة سريعًا.. فنزلت إلى الحقل مدفوعة بغريزة الدفاع عن عائلتها.. كان نزولها الحقل بنفسها وانحناؤها وسط الغيطان عيبًا كبيرًا في حقها، فهي ابنة الشيخ عبد الرحمن وبعض الجيرة الجدد يعرفون ذلك.. لكن ما باليد حيلة فالحياة أحيانًا تقتضي بعض التنازلات عن الصور الاجتماعية البلهاء.. فمستورة كانت مضطرة إلى ذلك، وللحق فقد أبدى عبد البديع شهامته واعترض في البداية أن تنزل هي الأرض، وأقسم بقسم يشبه الهمهمة أنه هو الذي سيفلحها.. لكنه من الناحية العملية لم يكن يجيد الفلاحة، فضلاً عن سنه الكبير وحركته الصعبة..

تظاهرت مستورة بالصبر والرضا عن بلاءاتها في البداية.. لكنها عندما انفردت بالخلاء حولها، ووجدت نفسها وحيدة وسط هذا العالم الغريب تمسك بفأس كالفلاحين المُكارين.. ودارت الصور في ذاكرتها فتذكرت أباها وأمها وروز والشيخ مصباح.. تغيرت نفسها على نفسها، وتعلقم طعم لعابها، فقد شعرت بعظم الإهانة التي وصلت إليها، وقسوة الزمان الذي ألقى بها إلى سفح الحياة تحت أقدام البشر.. فاتخذت ركنًا قصيًّا في أرضها الصغيرة وأجهشت بالبكاء..

عادت إلى بيتها بعد ساعات عمل شاقة.. وهي بالحالة النفسية نفسها، فكانت كمن أصيبت في قلبها بسهم يمني شارد.. فانتابت روحها حالة من الألم مروعة فمضت بطيئة يتصبب العرق على جبينها.. وتضم نفسها على نفسها كأنها تريد أن تمنع نزيفًا بداخلها.. كادت مع ذلك الجرح تكفر بقدرها، ضعفت مستورة لأول مرة وكادت تعلن استسلامها، وتصرخ: لمَ يحدث لي كل هذا؟ لم أنا؟

فمنذ سنوات قليلة كانت مدللة في بيت أبيها، وقبلها كانت تلعب مع روز المسيري في حيها.. أهكذا يفعل الزمان بالكرماء! فتحت باب الدار بوهن.. صعقت مستورة وهي على عتبة الباب عندما رأت أفعى صحراوية تحوم حول فاطمة النائمة المستغرقة في نومها.. وكأنها تشمها.. تسمرت مستورة مكانها كأنها شُلَّت.. جفت دموعها وتصلب عودها.. دارت الأفعى حول فاطمة كأنها تريد أن تقتل مستورة عن بعد.. ومستورة قد شُلَّت حركتها لا تعرف ماذا تفعل ولسانها حبس في فمها وأخذت تتنفس بصعوبة.. لم تشأ أن تفزع الأفعى فقد تقتل ابنتها.. استغاثت بربها كي ينقذ ابنتها.. زحفت الأفعى على بطن فاطمة تزيد في عذاب أمها.. خشيت أن تستيقظ فاطمة

فإن فعلت لدغتها الملعونة.. جثت مستورة على ركبتيها تبكي بحرقة وتكتم أنينها وتستغيث بربها:

- يا حي يا قيوم.. يا حي يا قيوم..

التفتت إليها الأفعى كأنها استمعت إلا توسلاتها.. بل وكأنها كانت تنتظر أن تراها في هذه الحال.. فاسترخت الأفعى على بطنها وكأن قلبها رق لحال الأم.. فهي أم مثلها.. تابعتها مستورة.. انتصبت الأفعى وتسمرت قليلاً كأنها تفكر.. ثم اتخذت قرارها وانصرفت بسلام خارجة من النافذة.. تنفَّست مستورة الصعداء وألقت رأسها عند عتبة الباب..

ثم عاد إليها فزعها فقد تكون لدغت فاطمة بالفعل لهذا لا تبدي حراكًا.. فأجابتها فاطمة بغطيط مدوٍ يشبه غطيط أبيها.. فابتسمت مستورة في ارتياح.. ثم رفعت رأسها إلى السماء، وقالت بملء قلبها وعمرها وأنفاسها: الحمد لله..

هكذا تهون الآلام.. وهكذا يصالحنا القدر بقدر.. بل لم يبخل عليها ربها وهو الكريم فأعطاها هدية أخرى حتى تستيقن أن ما هي فيه خطوات نحو الستر.. نحو أملها الكبير.. والمسألة ليست هينة فالاختبار صعب..

-23-

اندلعت معركة حامية فلاحية عرباوية في وسط أراضي بير العسل.. بين المدعو عبد البديع الغنام من جهة، وبين رضوان ابن الشيخ إبراهيم من جهة أخرى.. والسبب وجيه للغاية؛ فالساقية كان معلق فيها بقرة رضوان، ورضوان يملك سبعة أفدنة يرويها منذ ثلاثة أيام.. وعبد البديع انتظر طويلاً كي يروي فدانه اليتيم، لكن رضوان لم يلتفت لعبد البديع بل أصر أن يروي أفدنته مجتمعة.. فلم يجد عبد البديع من الثورة بدًّا، فحل بقرة رضوان وأطلقها في الحقول تأكل من خشاش الأرض وخضرائها.. وربط مكانها حماره.. «واللي مش عاجبه يشرب م القنا»..

كثير من العرب يكرهون الفلاحين ويعتبرونهم سذجًا أغبياء، ويسمون الفلاح (فِلح)، وكذلك الفلاحون لهم أفكار سلبية عن العرب ويعتبرونهم أجلافًا غلاظًا لا يعرفون عن الذوق شيئًا.. لذا لم يكن لعبد البديع نصير في هذا المكان، وكان هذا كفيلاً بأن يجبره على ضبط أعصابه وتصرفاته، لكنه كان متهورًا منساقًا خلف غضباته التي كادت تورده المهالك أكثر من مرة قبل ذلك، وقد فكر أثناء الشجار أن يعتمد على ذراعه كي يترك في المعركة بصمته

التي تؤكد قوته، لكن ولله الحمد لم يفعل.. ولو كان رضوان متهورًا قليلاً لكان لذلك توابع سيئة للغاية على صحة عبد البديع العجوز.. خاصة وأن العرب كانوا سيقفون بجانب رضوان، وحتى إن كان منهم منصفون فكانوا سيكتفون بالصمت والفرجة..

سمعت مستورة صيحة زوجها التي تميزها.. فاعتبرتها نفير حرب، وخرجت مسرعة نحو الميدان متنمرة.. حتى وصلتهم ومهدت لدورها الكبير في المعركة بأن سلقتهم بلسانها الحاد، وفتحت قاموسها المتواضع في الشتائم المهذبة.. فاتهمتهم في نخوتهم.. لأنهم لم يحترموا العجوز.. ولم يحسنوا ضيافتهما..

وصل الشيخ إبراهيم الصوفي فصاح في ابنه وأسكت الجميع.. وعرف مستورة وابنة من تكون فاعتذر لها وأجبر ابنه على الاعتذار، وأيضًا اعتذر للعجوز عبد البديع واستسمحه وفعل له ما أراد..

وتأكيدًا للاعتذار جاءت كنَّة الشيخ إبراهيم بالغداء تحية للضيفين وتعويضًا عن سوء معاملتهما، ومعها مفاجأة جميلة خففت عن مستورة الكثير..

كانت المرأة نفسها هي المفاجأة.. فاجأتها بزغرودة من الزغاريد التي تحبها وتنتشي لسماعها.. التفتت مستورة فلم تصدق.. كادت مستورة تطير من الفرح، وكأنها انتُشلت من بئر سحيقة..

- زمزم!!

قامت إليها.. قفزت في صدرها فكادت تسقطها أرضًا.. احتضنتا طويلاً ودارتا في المكان تبكيان.. لا تدريان لم تبكيان.. إنه حر الغربة وغبارها ورياحها وزلازلها التي عانتها كل منهما، فلم تجدا يدًا تربت، أو لسانًا يطيب الجروح..

جلستا تحكيان طويلاً.. كانت مستورة أكثر من زمزم ثرثرة، فعندها الكثير تحكيه ما له أهمية وما ليس له.. لن تنتهي الحكاية ولو جلستا عامًا قادمًا تحكيان..

انشرح صدر مستورة أخيرًا.. تنفست الصعداء.. أخذت تدور حول صاحبتها سعيدة تريد أن تفعل لها أي شيء.. وبين الحين والآخر تحتضنها بقوة وتملس على ظهرها، كأنها ابنتها الشاردة التي عادت..

زمزم كانت قد ضاق بها الحال كثيرًا في قريتها «الميهي» التي تزوجت فيها، فجاءت مع زوجها ووالده إلى بير العسل.. وحدثت لها فاجعة في ابنها الأول فقد دهسه أتوبيس الحكومة وهم في إحدى تنقلاتهم بين الميهي وبير العسل، وظلت بعد وفاته عامًا في حالة شبيهة بالحمى.. تهذي وتهمهم وتردد اسمه.. حتى كادت تجن من كثرة البكاء والحسرة على ولدها.. ترقرقت الدموع في عين مستورة تأثرًا بكلام صاحبتها وأخذت تواسيها.. لكن قبل أن يأخذ الحديث منحى دراميًا، تضاحكت زمزم، وقالت بثقة:

- كله بإيد اللي فوق.. يقطع من هنا ويوصل من هنا..

ثم أشارت إلى بطنها:

- وآدي ربنا عوضني.. وإن شاء الله يكون صبي.

قبيل العصر استأذنت زمزم بالانصراف على وعد باللقاء كلما سنحت الفرصة.. فودعتها مستورة وقد راق بالها وهدأ صدرها، وأخذت من صاحبتها العهود الموثقة والمواثيق المغلظة بالعودة كلما تيسر لها..

جلست مستورة على عتبة بابها ترقب غروب الشمس في سكينة.. ثم تنهدت في استرخاء، وقالت:

- الحمد لله..

منذ أن ظهرت أهم بطلات قصتها في روايتها ثانية، وهي أزكى نفسًا وأفضل حالاً.. فكلما اشتد بها الأمر وتعبت نفسها وأرهق بدنها من العمل في الحقل، ذهبت إلى زمزم تسري عن نفسها وتحكيان فيما مضى.. أو تأخذها وتخرجان إلى الترعة لتُجددا العهد الذي مضى..

لم تجدا منزلاً حجريًا ذا موقع استراتيجي كمنزل أبو غرارة الأثير، فصنعتا هما منزلاً إلى الماء بالحجارة وقطع من الخشب، كانتا تلتقيان عنده كل يوم دون انقطاع.. تخرجان مع الشروق وتعودان مع الضحى.. مع الوقت صار نساء بير العسل يستخدمن المنزل نفسه، ويفضلنه لاتساع الترعة عنده وصفو مائه، وكن يسمينه باسمهما مستورة وزمزم.. ثم صرن يقلن «منزل مستورة»، فقد كان أقرب لبيتها..

قبل وضعها بأيام تغيبت زمزم عن الحضور إلى الترعة، وعليه فكانت تذهب لها مستورة أو ترسل لها فاطمة تأتي لها بخبرها.. حتى عادت فاطمة لها مسرعة في ذلك اليوم تخبرها وتنذرها وتحثها على النهوض لإدراك صاحبتها التي تنازع الموت وتصرخ من الألم.. انتفضت مستورة كمن لدغه ثعبان.. لم تفهم من ابنتها شيئًا سوى أن زمزم في نزعها الأخير..

دلفت إلى الدار.. رأت النساء واجمات.. لم تسألهن.. دفعت باب حجرتها ودخلت وفاطمة في ذيلها لا تستمع لمن منعها.. وجدت القابلة عندها تدور حولها لا تدري ماذا تفعل.. وزمزم تكتم أنينها حينًا.. ثم تنفجر مستغيثة.. ثم تصمت.. ثم تزأر زئير الأسد، يهيأ للسامع أنها ستنفجر فتتناثر أشلاء في الحجرة..

- الواد معصلج.. متبت في حشاها..

لم تستمع للقابلة.. عرفت أن صاحبتها هالها أمر الولادة.. رغم أنها المرة الثانية، لكنها كما قالت تنتظر العوض.. دنت مستورة من زمزم.. مسحت على جبينها..

- هدي روحك يام الواد.. ما تخافيش.. اهدي خالص..

نظرت زمزم لصاحبتها.. تشبثت بيدها..

- يلا اجمدي.. يلا.. شدي حيلك.. بسم الله.. الله الحارس.. بسم الله.. الله الحارس.. بسم الله.. الله الحارس..

أخيرًا انزلق الفارس.. فقامت فاطمة بشكل عفوي بدورها المنوط بها وكأنها صارت متعهدة ولادات.. فأطلقت زغرودتها.. وتبعها من في الخارج..

انتهى أنين زمزم وبدأ أنين مستورة.. فقد كادت تقصف كفها في فم زمزم..

- كلت إيدي يا مفجوعة.. ده جزاتي..

ابتسمت زمزم وقد غرقت في عرقها.. قبلتها مستورة في جبينها..

- يتربى في عز أبوه..

-24-

عاشت على حالها عامًا كاملاً، حاولت فيها أن تضحك وتمرح كسابق عهدها، وفعلت.. لكنها لم تستطع أن تتأقلم مع المكان هناك وتشعر بكامل الأمان.. فلم يكن يشجعها على البقاء سوى وجود زمزم.. لكنها كانت تتمنى أن تعود إلى الغنام ثانية، حيث العائلة والعزوة.. وأهل بناتها وأولادها القادمين..

جاء يوم الحصاد الثاني في العام.. شدت قطعة القماش على وسطها.. ونزلت أرض القمح كفارس خبير بالميدان.. ونزل عبد البديع بجوارها مؤنسًا.. يعمل حينًا ويجلس يلف الدخان أحيانًا.. وفاطمة من خلفهما تستعد كي تجمع عيدان القمح المتناثرة لتضعها مرتبة على الأكوام..

هيأت مستورة «المنجل» في يدها وقبضت عليه بقوة.. طالت نظرتها إلى المنجل.. كان يخيفها نصله الحاد المشرشر، فتسأل ماذا لو أخطأت فأصاب أصابعها في اليد اليسرى وهي تمسك بعيدان القمح كي تقطعها.. ماذا لو

أفلت المنجل وانطلق إلى قدمها فاخترقها؟ يقشعر جلدها وتبلع ريقها في توجس..

تلقي بنظر إلى عبد البديع علها تستقوي به عندما تراه يحصد.. تجده مشغولاً بلف سيجارة يريد أن يستهل به عمله المضني.. ترى فاطمة بجواره قد أخذت منجل أبيها في حماس وقامت تجرب قدرتها على الحصاد سعيدة.. تنتبه لها مستورة تريد أن تمنعها خوفًا عليها، لكنها تصمت عندما تراها تجمع عيدان القمح في كفها بجرأة وتجزها من جذرها بمهارة.. تنهدت وبلعت ريقها.. وأرادت أن تبدأ فانحنت..

- بسم الله..

ثم انتصبت:

- فاطنة.. روح هاتي قلة الميه..

تبعتها بنظرها.. وجالت تستطلع الميدان حولها فرأت الرجال متناثرين حولها في الحقول.. وبعضهم معه زوجته.. انحنت ثانية تحصد بهمة.. يبرق أمامها نصل المنجل ليعكس أشعة الشمس في عينها فتتوقف متوجسة.. ماذا لو أفلت المنجل؟

ثم تتشجع وتسمي الله للمرة العاشرة وتعمل بحماس لتمحو ذلك الوسواس، لكن لا يلبث إلا قليلاً ثم يعود يخرج لها لسانه، فلا تلبث هي وتحاول أن تصرفه..

قرب الغروب خرجت منهكة تجر أقدامها جرًا.. دخلت الدار تستطلع أخبار فاطمة.. فكانت قد أرسلتها لتعد لهم الطبيخ..

- عملت إيه يا فاطنة؟

- خلاص يا مه..

- براوة عليكِ..

تقدمت مستورة إلى الحلة فخورة بابنتها ورفعت الغطاء فخرج البخار مندفعًا يحمل رائحة البامياء.. فاستنشقته متلذذة:

- الله! تسلم إيدك يا بت عبديع.. يعني لو فلحت في المدرسة مش كان أحسن لك؟ روحي نادي لأبوك ييجي ياكل لقمة..

عند ظهيرة اليوم الثالث.. كانا قد أوشكا أن ينهيا عملهما المضني ويفرحا بالحصاد، ومستورة بين الحين والآخر ترفع ظهرها كي تعيد ربط شريط القماش الأبيض على جرحها الجديد في أصبعي اليد اليسرى السبابة والوسطى.. صار أمر الجراح طبيعيًا.. وصارت هي أنشط ولم تعد تخاف نصل المنجل كسابق عهدها.. فبعدما رأت الجروح ورأت الدماء.. مات خوفها ودفنته..

قبل أذان الظهر بدقائق.. فوجئا برجل غريب يقف على رأس الأرض على حمارته، ويصيح:

- بتعمل إيه يا عم الحاج؟

رفع عبد البديع جذعه يرى من يتحدث.. ومستورة وضعت يدها أفقيًا على جبهتها تظلل بها عينيها فترى من الطارق.. فأردف الغريب:

- الأرض دي بتاعتي يا حاج..

عبد البديع لا زال محملقًا.. ربما لم يسمعه جيدًا.. وربما سمع ولم يفهم.. وربما سمع وفهم.. لكنه لم يصدق..

انتبهت مستورة مذعورة وقد سمعت وفهمت.. نزل الغريب الحقل مقتربًا من عبد البديع.. شرح له الرجل أن هذه الأرض ملكه، وقد وقع عقدها مع مهنا، وكان على سفر وعاد.. صُعقت مستورة وفار الدم في عروقها، وانتفضت لتمسك بخناق الرجل قبل أن يتم قصته، فلما وجدت أن الأمر سيعيها.. جرت إلى منجلها الذي ألقته، وقبضت عليه بمهارة، ودنت من الغريب وقد شهرته إلى أعلى.. فتراجع أمامها..

- إنت بتقول إيه يا مخبول إنت؟

أما عبد البديع فقد أسكرته الصدمة.. ارتعشت يده ولم تحمله قدمه.. لم تشعر مستورة إلا وهو مطروحًا على الأرض.. صرخت فاطمة.. فالتفتت مستورة عن الغريب.. والتفت الغريب عن نفسه.. فأسرعا نحو عبد البديع يحاولان إسعافه.. حاولت مستورة إفاقته لم يفق.. نقلته بمساعدة الرجل إلى دارهما وفاطمة من ورائهما تجهش بالبكاء.. أرسلتها أمها إلى الشيخ إبراهيم، فأسرعت فاطمة وهي تكفكف دموعها.. بعد دقائق حضر الشيخ إبراهيم، ألقى السلام وجلس يطبب عبد البديع ويحاول إفاقته..

أفاق عبد البديع آخر الليل..

الغريب لم يكن قد انصرف بعد، فضميره يؤنبه، لكنه لم يكن يقصد ما حدث.. حكى للشيخ إبراهيم عن العقد الموقَّع بينه وبين مهنا منذ ثلاث سنوات.. تفهَّم الشيخ إبراهيم الموقف.. وعبد البديع ظل صامتًا فقط يلقي كلمات قليلة؛ كي يطمئن طفلته المذعورة المرتمية على صدره.. ومستورة في ركن من الحجرة وبجوارها زمزم تواسيها..

- طب والعمل إيه يابا إبراهيم؟

سألت زمزم نيابة عن مستورة اللاهية في دموعها القلقة على زوجها.. فأطرق قليلاً ثم نظر إلى الغريب ثم إلى عبد البديع..

- بكرة إن شاء الله نتكلم في العمل.. وآهه يكون أبو فاطنة استريح شوية..

ثم انتصب واقفًا.. وهم بالانصراف.. ودعا الغريب إلى بيته، وألح عليه حتى استجاب.. انتصبت مستورة وأوصلتهم إلى باب الدار وودعت زمزم وودعتها.. رأى الشيخ حال مستورة الذي ليس أفضل من حال زوجها، فقال لزمزم:

- خليك معاها يا زمزم الليلة دي..

شكرته مستورة، وأقسمت على زمزم أن تبيت في دار زوجها، فالأمر لا يستدعي ذلك..

عادت مستورة ترنو إلى عبد البديع من عند باب الحجرة.. وهو شارد يعبث بشعر فاطمة التي احتضنته.. نظر إليها بانكسار كأنه يعتذر إليها عما يفعله فيها لكنه لم ينطق.. حاولت أن تحرك الماء الراكد وتفجر ذلك الصمت، اقتربت منه متباسمة:

- ولا يهمك يا خويا.. أوعى تزعَّل روحك.. والله آني فرحانة إننا هنرجع الغنامين تاني..

أثر الحادث على أعصاب عبد البديع وذهب سمعه في أذنه الضعيفة كلية.. أحس بمدى الهوان الذي يعيشه.. وشعر كم تعاني المسكينة مستورة معه.

في اليوم الثاني أسفرت المناقشة مع الغريب، بعد أن اطلع الشيخ إبراهيم على العقد، عن اتفاق عادل، وهو أن يأخذ الغريب جزءًا من المحصول ويأخذ عبد البديع ومستورة معظمه.. لأنهما هما اللذان زرعا.. ثم يجلسان في «قعدة عرب» مع مهنا ليستعيدا دارهما أولاً، فإذا توصلا إلى اتفاق مرض

يأخذ الغريب الأرض.. لكن كان الغريب أكثر كرمًا فتنازل عن حقه في المحصول لعبد البديع ومستورة واكتفى بما أصابهما من بلاء..

-25-

عاد عبد البديع إلى عزبة الغنام يجر أذيال الخيبة والندامة، ومستورة صامتة لا تنطق، واكتفت بما رأته على وجه زوجها من الانكسار بعد مظنة الانتصار.

تحول عبد البديع إلى ثور هائج رغم ما فيه من مرض عندما رأى المدعو مهنا، الذي هرب من وجهه إلى أن أجبره إخوته على الحضور، وأخذ الناس يهدئون عبد البديع، في الجلسة التي حضرها الشيخ إبراهيم في عزبة الغنام ومعه كبار العزبة، وكان بعضهم أشد غضبًا من عبد البديع وكادوا يفتكون بمهنا، لولا أن إخوته حالوا بينهم وبينه.. فاكتفى الجميع بتوبيخه..

- يا خسيس يا ضلالي.. بتستغل شيبة عمك!

أعلن إخوة مهنا أنهم سينفذون ما يطلبه عمهم عوضًا له عما فعله أخوهم.. فاستطاع الشيخ إبراهيم أن يعيد لعبد البديع داره في عزبة الغنام مرة ثانية.

خرج عبد البديع من تلك الحادثة بأقل الخسائر، ومستورة ربتت على كتفه، وإن كانت تود أن تفعل غير ذلك.. لكن ما باليد حيلة.. وحمدت الله أن عادت لدارها..

***

لعل مستورة أنستكم إياي.. هذا ما يحدث دائمًا كلما حكيت حكايتها.. لكن على كل حال هي امرأة لا تستحق أن أغار منها.. فحالي أفضل كثيرًا منها، فبحمد الله صفت السماء وابتسم السحاب.. وبدأ الناس ينصرفون مسرعين من تحت سقف الورشة إلى بيوتهم.. أما أنا فلم أجرؤ على تلك الخطوة فبيني وبين بيت مستورة في هذا الطقس ما يقرب من ساعة، فقد تداهمني السماء ثانية في أي لحظة.. فضلت المكوث، لا سيما وقد أدفأت مكاني.. وأيضًا كان بالورشة «كوبس» كهرباء.. فشحنت بطارية اللاب قبل أن تقضي نحبها..

-26-

ألقت تحيتها على دارها باسمة وكادت تحتضن بابها.. وبمجرد دخولها حجراتها نسيت كل ما كان، فدارت تملس بيدها على الجدران كالمجنونة.. صعدت السلم الطيني إلى السطح.. نظرت إلى العزبة من أعلى، والنساء الذاهبات الآيبات على ترعة الأفندية, والأولاد يتشاكسون عند دكان عم حلمي.. تنسمت الهواء سعيدة منتشية ثم نزلت لتستعد..

بشكل يغيظ ويثير الحقد والحسد.. لم تمل روح السيدة ولم تكل جوارحها.. فقررت للمرة العاشرة أن تصنع عالمها من جديد، وتحاول أن تقوم هي بدور زوجها الذي عجز أن يقوم به.. وتحاول بقوة روحها وما وهبها الله من صبر وقوة تحمل أن تهوِّن على نفسها وابنتها وزوجها، رغم أنها كانت تشعر أحيانًا أن عبد البديع لم يكن يستحق عطفها وكدها من أجله.. لكن مستورة رغم ما في زوجها من بلايا ورزايا إلا أنها ألفت عشرته. قد تكون ألفة بحكم طول العهد، أو لأنه أبو ابنتها، المهم أنها ألفته وربما أحبته.. فتألمت لعجزه وأدركت أن السن له قوانينه الصارمة. فحمدت ربها على ما آلت إليه من حال.

كان أول شيء فعلته لتقص شريط دخولها دارها المباركة ثانية أن أرسلت إلى شبانة ليقرأ عليها سورتها.. قرأها وترنمت معه واهتز جسدها وكتمت دموعها.. ولما انتهى بحثت عن شيء تعطيه إياه فلم تجد.. فتشاءمت.. ثم وجدت بغيتها في صندوقها الخشبي الصغير. فأفرغته غير مترددة، وأعطته لشبانة ليحوله مكتبة، وأحبت أن تستثمر الصندوق؛ فاشترطت عليه أن يقرأ لها به خمسين مرة متفرقة..

ازداد شغفها بالعزبة.. وازداد حبها لجاراتها.. ولم يعكر فرحتها سوى أنها فارقت خليلتها التي لن تنساها زمزم.. لكن هنا البديلة الطيبة صفية.. أيضًا هنا خالها الشيخ مصباح، الذي حتمًا سيعود عن قريب، فسيحميها ويقف بجوارها إذا جار الزمان..

بنت فرنها الطيني الذي كان قد تهدم باحتراف تعلمته من زمزم.. جهزت الكانون الخاص بها في الحوش للطبخ عليه.. استعانت في إفطارها وغدائها وعشائها بمزروعات من حولها تأخذ منهم البامية والملوخية والكوسة والأرز.. على شكل هدايا هي في الأصل صدقات.. صنعت مشها في بلاصها ووضعتها فوق السطح.. وكانت ترسل فاطمة في القيلولة تأتي لهم بالسريس والجعضيض والرجلة، وما شابه..

مضت الحياة صعبة قاسية لكنها تحملت ولم يكن لها خيار آخر..

ذات ضحى وهي منهمكة في عجينها بين يديها.. تهجم عليه بقبضتها فتلتُّه وتفرده ثم تجمعه ثم تلتُّه وتعجنه.. فاجأها بطلّته الباسمة الساحرة:

- بسم الله ما شاء الله.. إيه الشطارة دي كلها!

لم تتمالك نفسها، غمرتها الفرحة بعودته، فأطلقت زغرودتها الثانية، فأدهشت الشيخ مصباح..

حكى لها بعض تفاصيل معاناته التي تركت أثرها في جسده.. وأراها ما أمكن من الأخاديد التي تركتها الكرابيج التي لم تفرق بين مشايخ وملحدين، فكرابيج الحكام ليس لها ملة.. فهمهمت بسباب وازداد حنقها على الزعيم الراحل..

استرجع الشيخ ابتسامته، حتى لا يفقدها فرحتها برجوعه:

- ربنا يسامح الجميع..

ألحت عليه أن يتناول العشاء معهم، لكنه لم يرد الإثقال عليها، فأخبرها أن صدقية وحدها، وسيعاود زيارتها بعد صلاة العشاء..

نامت مستورة سعيدة بعودة الشيخ مصباح.. استغرقت في نومها وغطت، وقرب الفجر عاودها منام الغراب الأبيض وحلقته الذهبية.

-27-

لم تنسَ مستورة حلم الولد.. هذا الذي ينقصها.. دعت الله واستجارت أن يؤنس حياتها بالولد تستقوي به على الزمان.. لم تمض شهور حتى حملت ثانية.. كادت تطير من السعادة.. أخبرت جارتها صفية.. لم تسع صفية الفرحة زغردت ونشرت الخبر وأكدت أن مستورة لا تزال بخيرها.. فرح لها نساء العزبة واستبشرن لها..

أنجبت مستورة «حلاوتهم».. امتعضت وبلعت لعابها وسكتت..

-28-

ازدادت الحياة سوءًا في السبعينيات.. فالبكاد يجدون ما يبقيهم على قيد الحياة، بل أحيانًا لا يجدون عشاءهم.. كانت تسمع الناس يقولون:

- هنحارب.. وبعد الحرب هتُفرج..

وقال السادات:

- «الناس في عهدي هياكلوا ببلاش.. واللي مش هيتغني في عهدي مش هيتغني أبدًا».. أو كما قال..

دخل الناس الحرب.. حاربوا.. عبروا القناة.. غاصوا في رمال سيناء.. لكن أخبرها الشيخ إبراهيم وهي في بير العسل أن الجنود رجعوا بعد بضعة كيلوات.. اندهشت، سألته:

- منين حاربنا ومنين رجعنا؟!

بعد الحرب نفذ السادات ما وعد، فنشر في المدن أكشاك الفول، وصار الشعب كله يأكل الفول «ويبوس إيديه وش وضهر»، بل تعدى كرم

السادات ذلك، وأعلن عن معاش الأمان.. الذي سمي معاش السادات.. جنيهات وقروش تسد عين «السمس» وتكفي مستورة وابنتيها اللاتي تعودن وجبتين في اليوم، وثلاثة في أيام «الزقططة».

سعت مستورة في ورق معاش الأمان حتى حفيت وبللت بدموعها المكاتب الحكومية، وكان اليوم الذي نالت فيه البطاقة يوم انتصار أعظم عندها من انتصار أكتوبر.. وإن كان عبد الحليم لم يغنِّ لها عندما نالتها..

***

ظهرت سيارة ربع نقل آتية من ناحية المسين و«أبو غرارة».. وبدا لي أنها ستتجه يمينًا على طريق أبو وافية فانتصبت مترددًا.. أركب أم لا؟ أشير للسائق أم أحافظ على ماء وجهي؟ لكن بادر السائق الشهم وتوقف وأشار لي.. وكان يركب معه مجموعة من العرب يركبون أعلى السيارة متلفعين بعماماتم وشالاتهم.. وفي المنتصف امرأتان كبيرتان متشحات بالسواد خيل إليَّ أنهما تبكيان فلم أهتم.. بالغ السائق في كرمه، فأشار لي عندما رأى اللاب في يدي لأركب بجواره في الكابينة، فأفسح لي عجوز قارب التسعين مكانًا، وكان يجلس وحده بجوار السائق.. فلبيت الدعوة خجلاً..

-29-

كانت النساء أيام المواسم يوقدن في الحوش تحت أوعية اللحم ومستورة لا تملك شيئًا من هذا، فكانت تضع في الحلة الماء ثم تضع فيه بضع «زلطات»، وتوقد تحتها على الكانون حتى توهم جاراتها أنهم مثلهنّ سيأكلون «ظفر»، ثم تتعشى بما حضر هي وابنتها فاطمة ورضيعتها حلاوتهم.. أما عبد البديع فكان يتعشى في مثل هذه الأيام عند أصحابه أو أحد أبناء إخوته.

ذات مرة أوقدت على الزلط وأمرت فاطمة أن تجلس بجوار الحلة كخفير، ولكن فاطمة كانت تعتبر الجلوس وسط السيدات الكبار كحكم بالسجن المؤقت.. فهي كأبيها لا تستطيع أن تحبس نفسها ساعة في عمل ما، فخرجت إلى شاطئ الترعة تناكف في البائعين أو الجيران أو البنات اللائي يصغرنها ويمتلكن ما لا تمتلكه.. بعد قليل أفاقت مستورة على صيحات النساء الساخرات:

- الحقي ظَفَرك يا عمة!

خرجت مستورة وبين يديها حلاوتهم لتجد الحلة تحترق ويخرج منها الدخان مندفعًا؛ كأنها قارورة في مفاعل نووي، فقد جف الماء وسخن الزلط وفاطمة لاهية، وعليه فقد انكشف أمر مستورة ولم يعد مستورًا.. فبلعت لعابها وصبت الماء على الكانون وأطفأته.. ثم دخلت صامتة تشتعل غضبًا ولو أمسكت بفاطمة حينها لقتلتها ووضعتها في الحلة مكان الزلط..

لكن ذلك لم يمنع مستورة أن تكرر الأمر ثانية وثالثة.

حكت لي مستورة أن فاطمة جاءتها ذات يوم ببطة، وأخبرتها أنها هدية من الخالة صفية فأخذتها مستورة ولم ترد أن تزيد في الاستيثاق من فاطمة رغم أنها شاكة فيها، فذبحت البطة وأكلت نصفها هي وفاطمة وأبقت لعبد البديع نصفها.

ثم في جلسة الأنس التي تلي مثل هذه الأكلات أخبرتها فاطمة، وقد استيقظ ضميرها، بأن البطة التي أكلتاها سرقتها من خالة صفية، فانهالت مستورة عليها ضربًا وتبكيتًا وأدعية لو استجيبت لسقطت السماء على فاطمة.

لكن مستورة رغم ذلك أبقت على نصف البطة لعبد البديع، فما كان ليقتنع بالحرام الذي يمنعه عن نصف بطة.

شعرت بما تشعر به الحامل.. تفاءلت.. كتمت الخبر خاصة عن صاحبتها صفية.. أخبرت عبد البديع همسًا وبشرته باسمة.. وأكدت عليه ألا يخبر أحدًا خوفًا من الحسد.. في الشهر السابع أخبرت صفية وبدورها بثت إذاعة الخبر على الهواء مباشرة وغير مباشرة، وفي الثامن جاء مستورة المخاض.. اجتمع نساء الغنام في الخارج.. ستكون كارثة لو كان المولود أنثى..

امرأة مهنا في أقصى الجلسة حركت شفتيها ساخرة وهمست:

- دي خايبة.. وبطنها ما بتشيلش غير نتاية.

تلكزها جارتها:

- اتحشمي يا زينات.

صمت طويل..

انطلقت زغرودة فاطمة من الداخل رغم أن مستورة لم تأمرها بذلك، ولكنها تعرف وظيفتها جيدًا.. مستورة أفاقت على زغرودة فاطمة.. حاولت أن تخفي الخير الذي جاء، أوصت القابلة وصفية أن تقول إن المولود أنثى.. خرجت صفية تقول متنهدة:

- كله خير من عند ربنا..

القابلة همست في أذن عبد البديع مبشرة بالولد حتى تنال الحلاوة، فلم يستطع أن يخفي فرحته، بحث في جيبه عن شيء يعطيه لها.. لم يجد غير «باكو» الدخان البفرة الذي كان فارغًا هو الآخر.. أخذها إلى عم حلمي صاحب الدكان.. قال لها:

- خدي اللي نفسك فيه.. يا أم سليمان..

لم يستطع عم حلمي أن يمتنع أمام عمه عبد البديع.. أعطاها ما طلبت.. قال له عبد البديع:

- اكتب على النوتة يا حلمي.. وعمتك مستورة حتبقى تجيبهملك..

شاع الخبر الحقيقي بالطبع على لسان صفية.. وكان رد الفعل على عكس المتوقع.. فسعد الجميع حتى من كن يكرهنها لما رأين من سوء حالتهما، ولم يستكثر أحد عليهما الفرحة بصغيرهما.. اختارت مستورة اسم يوسف للمرة

الثانية.. لم يستطع عبد البديع أن يمانع هذه المرة، فقد لان جانبه ورق صدره ورجع شابًا من جديد عندما حمل ولده بين يديه.. تفاءل بالاسم.. وقال باسمًا:

- شي لله يا أم يوسف..

صنعت مستورة طستًا من العدس ووزعته على الجيرة كلها، وأكدت على فاطمة ألا تدع دارًا إلا أعطتهم.. والعدس -على حد قول مستورة- يخزي العين الحاسدة، ويرد كيد الشيطان..

وضعت على رأس الطفل ما شاء الله خمسة وخميسة، لعله يفلت من قبضة الموت، وأخرجته من الغربال بعدما دوخته وأمسكت بالغربال كي ترسله وتستكشف عمره.. ثم توقفت.. فقد تذكرت أخاه.. فامتنعت وأرخت الغربال.. وهمهمت:

- كله بأمره..

ظلت ترعاه يومًا بعد يوم كأنها ترعى زرعًا، وكلما مر يوم تأكد حلمها، وبالفعل تخطى يوسف العام، واعتبرته قد نجا.

***

اشتد المطر والركاب في الأعلى يحاولون أن يتفادوا المطر بعباءاتهم، وكنا على مشارف عزبة درويش.. ومع إصرار الركاب في الخلف توقف السائق ونزلنا.. ثم توجهنا إلى مدرسة درويش كي نحتمي بها.. وقد عرفت أثناء النزول أن العجوز الذي يركب بجواري هو إبراهيم الصوفي.. كانت مفاجأة أثارتني.. وددت أن أتعرف إليه وأسأله عن سبب مجيئه إلى تلك الناحية وأسأله عن الحاجة زمزم، لكن سمعه الثقيل كان سيجعلني أبدو كمن يتشاجر معه ولن

أصل إلى شيء.. فكسلت عن المحاولة واكتفيت بصورته التي لم تكن كما تخيلتها.. وأخذت اللاب وانفردت بنفسي ناحية غرفة البواب..

-30-

تدفق في روح مستورة الحماس، ونشطت لتوفير الخبز والملبس وحياة شبه كريمة لأولادها، أو نكون أكثر صدقًا ونقول: لوليدها، فقد فعلت بها السعادة بإنجاب الولد الأفاعيل وأعادتها فتاة في العشرين وصارت على استعداد أن تفعل المستحيل من أجل يوسف الصغير الذي سيحل المعضلة ويحقق حلمها وترفع به رأسها..

فإن كان الإنسان تتولد لديه بشكل غريزي هرمونات يفرزها الجسم للدفاع عن نفسه حين الخطر، حتى وإن كان لا يملك تلك القدرة قبل ظهور الخطر.. فإنه أيضًا يحدث له ذلك عندما يكون على شفا هاوية، ثم يرى عودًا من القش على فم الهاوية يتراقص هناك، فيتشبث بأظافره حتى يصله فينجو رغم أنه لا ينجي، لكن لولا ذلك لما كانت الحياة حياة..

هكذا استيقظ قلب مستورة وانتعش كيانها.. انطلقت تضع خطة جديدة لحياتها تحافظ بها على حياة فارسها وبطلها والورقة الأخيرة في رهانها مع

الحياة؛ كي تنال قسطًا من السعادة أو المكانة التي يضع فيها الولد أمه في مثل بيئتها.. حتى لو كلفها ذلك أشق التكاليف..

تخيلت نفسها وهي تجلس على مصطبة الدار وزينات زوجة مهنا تمر عليها محيية:

- صباح الخير يا أم الأستاذ.

فترد هي باعتزاز وكبرياء:

- الله يعافيك ياختي..

هي تعرف جيدًا أن المقام الأدبي يصنع ما تصنعه الأموال بل أكثر.. فتجد الثري الذي كان بالأمس متغطرسًا متكبرًا بماله ينحني لصاحب العلم انحناء ويبجله تبجيلاً..

وضعت يوسف أمامها وأخذت تنظر إليه سعيدة.. وتحدثه بمستقبله الذي سيكون، وتعده بأنها ستفعل من أجله كل شيء وستوفر له كل شيء فقط عليه أن يصير أستاذًا.. وأستاذًا هذا يوازي عند مستورة وقتها لقب الباشا والبك.. يضحك الطفل ابن العام ظانًا أنها تلاعبه.. فيقبض على أصبعها السبابة الذي يتحرك أمام عينيه سعيدًا..

كان أول ما فعلته من أجل يوسف أن أرسلت إلى شبانة الصبي صاحب الصوت الندي كي يقرأ في أذن وليدها سورتها، وتلك بدعة مستورية لم يفعلها غيرها..

-31-

على هامش تبعات نشوتها بوليدها، أرادت مستورة أن تجدد المقعد فهو حجرة إضافية للدار قد تستغلها فيما بعد من أجل التوسعة، فأرسلت إلى رزق البناء، فضرب لها قوالب طوب طيني، ثم بنى ما تهدم من المقعد ثم ضبط حالة السقف، ثم طلى جدرانه بالطين لسد الشقوق.

كانت فاطمة ابنة الأربعة عشر هي التي تساعد رزق في العمل وتعد له الشاي والطعام.. فلفته جمالها، ولفتها قوته..

كانت تراها أمها قد كبرت واستدار جسدها وأينعت ثمارها وحان قطافها، فتسأل نفسها دهشة: لِمَ لَم يتقدم أحد بني عمومتها؟ فهي كانت تراهن على طوابير الخطاب الذين لن تستطيع صدهم عندما تكبر ابنتها، بل كانت تجلس مع نفسها وتتخيل تقدم فلان ابن فلان الغنام، وفلان ابن فلان الغنام، وتحتار كيف تفاضل بينهما.

ثم تقول لنفسها:

- خسارة فيهم عينيها الحلوين..

لكن لم يتقدم أحد سوى ذاك الفقير البائس ابن مجمد سالم، رفضته مستورة في البداية وناقشت عبد البديع كثيرًا، وأخذت تعدد عيوب رزق البنا لا سيما جيبه.

- اللي يسمعك يقول إنك بنت بارم ديله!

قالها ساخرًا لأنه كان متحمسًا للشاب، فكتمت غيظها وسكتت، وحاولت ألا تبدي غضبًا في حضور رزق الذي جاء هو وأبوه ليطلبا ابنتها..

أمام شخصية أبيه محمد سالم لم تتردد مستورة أن تعلن ترحابها وزوجها بتلك الزيجة المباركة، بل أنّبت نفسها في سرها كيف كانت ستضيع على نفسها هذا النسب مع هذا الرجل، وقدرت إعجاب عبد البديع بالشاب وأبيه.

أيضًا يطمئنها أن فاطمة لن تبعد عنها كثيرًا فعزبة صادق ملاصقة للغنامين بينهما دقائق سيرًا على الأقدام، أيضًا في فقر رزق ميزة كبرى، فهو لن يكلفها مظاهر لا تطيقها.

أما فاطمة العروس فتحولت إلى طفلة بلهاء لا تستطيع إخفاء فرحتها بالشاب رزق، بل بالغت في إظهارها، فأخذت تدور حول نفسها وتستعرض جسدها في أثوابها أمام مرآتهم المشطورة، ولم يعنها بمن ستتزوج فيكفيها فخرًا وفرحًا أنها ستتزوج، ابتسمت مستورة لفرحة ابنتها البكرية، وأخذت في الغناء وهي تدق بيد الهون وتصحن الكحل.

زوجتها بطست ولحاف وبما جاد عليها ربها به، وكانت أول فرحتهم فاختصرتها ومررتها سريعًا لتتفرغ للسيد الوليد.

-32-

عرفت مستورة بخبرتها مع الحياة أنها لن تستطيع أن تبني في يوسف حلمها إلا إذا استطاعت أن توفر له مقومات حلمه هو.. فكرت أن تعمل بالتجارة كي توجد مالاً في البيت تستعين به على تلبية رغبات ولدها.. لكن فيمَ تتاجر؟ وهي لا تملك رأس مال؟

أرسلت إلى صفية وشاورتها.. خطر ببال صفية على الفور مشروع كانت تود أن تكون هي صاحبته منذ سنوات ولكنها خجلت أن تفعله، وهو جمع السمن والجبن من نساء القرية، وبيعها لمن لا يملك في القرى المجاورة أو في المركز..

تخيلت مستورة نفسها تبيع وتنادي على السمن والجبن وسط الشوارع وأمام الأبواب، فأطرقت في استنكار.. ثم رأت يوسف يجري أمامها ثم يتعثر ثم ينهض متألمًا.. فشردت عن صفية تتابع يوسف حانية، ثم عادت نشيطة معجبة بالفكرة:

- والله براوة عليكِ..

عرضت الأمر على عبد البديع وبينت له كم سيجر ذلك عليهم من المال ولن تبخل عليه بالطبع إذا احتاج منه، وهذا أفضل المداخل إلى قلب وعقل وبطن عبد البديع الذي تغير حاله كثيرًا بعد حادثة بير العسل وصار أكثر لينًا مع مستورة، وصار يشاورها في الكبيرة والصغيرة، وإن ظلت فيه شطحاته الشيطانية إلا أنها تعودت أن تصبر عليه..

دارت مستورة على بعض بيوت المقربات لها في العزبة.. وخجلت أن تذيع أمر تجارتها القادمة أمام من يكرهنها وأهمهن زينات.. واتفقت مع النساء أن الثمن بعد البيع.. وافق معظم النساء ورحبن بتجارتها، حتى من كانت بينهن ليس لديها رغبة في بيع سمنها وجبنها لحاجة بيتها، إلا أنها أحبت أن تقدم مساعدة للكريمة التي ذلت.. وكانت شفقتهن تلك تقع في قلبها أشد من الشماتة، فإن كان حالهن لا يختلف كثيرًا عنها.. لكن على الأقل كان أزواجهن هم أهل «المرمطة»..

ساعدتها صفية في ذلك وصدقية زوجة الشيخ مصباح وابنتها فاطمة.

ملأت الطست بالسمن وفرغت مكانًا في الوسط وضعت فيه حلة الجبن، وبعض النساء أرسلن لها لبنًا رائبًا فتولت هي أمر تحويله إلى جبن؛ اكتملت رصة الطست وتركت ركنًا فارغة تحسبًا لزيادة البضاعة عند المرور على العزب المجاورة.

صلت صبحها.. توسلت إلى ربها تسأله التيسير..

حان وقت خروجها لبداية أولى رحلاتها التجارية، وكانت قد اتفقت مع اللاتي سيبعن لها في قرية الشفيعي ودرويش وقويدر وأيضًا وجدت بينهن بعض اللاتي يشترين..

أوصت صفية برضيعها..

استعانت بالله.. ثم استعانت بصفية فرفعت قبالتها الطست الثقيل على رأسها.. فتحت الباب تنسمت هواء ذكرتها نسماته الشاذة بشقائقها التي استنشقتها في بير العسل عندما انحنت لأول مرة.. ها هي الآن تنحني ثانية..

سارت في شوارع العزبة ناظرة إلى الأرض خجلاً.. فهي العمة مستورة.. همهمت تدعو ربها ألا ترى مخلوقًا الآن، فأعملت أكثر في إغضاء بصرها.. وبالفعل هي لم تر أحدًا من النساء.. لكن نساء العزبة كلهن رأينها، وهي بالطبع أدركت ذلك لأنها في كل خطوة تسمع مصمصة شفاه مشفقة، أو دعوة مخلصة بأن يسهل الله أمرها..

فجأة رأت زينات في وجهها، ودَّت لو انشقت الأرض وبلعتها.. أو يا ليتها ما رفعت بصرها.. علا وجيبها.. ووَدَّت أن تصفع زينات على وجهها دونما سبب كي تسكتها قبل أن تنطق، هي لا تدري ماذا ستقول لكنها تعلم أنها تكرهها.. لن تمرر الموقف بسلام سترمي بكلمة شامتة تتشفى فيها.. يا لها من..

- ربنا يسهلك يا أم يوسف..

اصطدمت خواطر مستورة السيئة على حافة ود البشر، فتحطمت وتناثرت أشلاء ظنونها.. هي عادة قلب مستورة الطيب الذي يعجز دائمًا أن يتم مباراة كره أو غضب.. وسارت تحدث نفسها.. أم يوسف! يا له من لقب رائع يأخذ إلى أنهار الجنة! زينات.. لا.. بل أم جميل.. امرأة طيبة رغم ما يقال.. رغم حسدها التي تحمله لكل النساء.. إنها لا تكرهني على الأقل.. ولو كانت تكرهني ما نادتني بأم يوسف.. آه لو قالت أم الأستاذ! غدًا ستفعل فيوسف سيصير أستاذًا، سيمحو هذا المشهد وغيره من هذه الذاكرة العفنة.. وستقول لي زينات.. في الغدوة والروحة..

- يا أم الأستاذ..

حرّكت بالجملة شفتيها، سمعت صوت نفسها.. خجلت لحالها.. التفتت ترى هل انتبهت إليها إحدى الغناميات فيقولون.. «الولية اتجننت!».

لم تجد أحدًا بل وجدت نفسها قد خرجت بسلام من عزبة الغنام إلى وسط الغيطان مقتربة من عزبة قويدر.. رأت البيوت من بعيد.. هالها الأمر ثانية..

- يا رب استر..

دلفت إلى أول شوارعها.. نظرت حولها.. تستعد لبدء العمل.. أرادت أن تنادي على السمن كما يفعل النساء في مثل صنعتها تلك.. بلعت لعابها.. رفعت لسانها إلى سقف فمها تريد أن تطلقه.. لكنه أبى فلم تجبره.. تصلبت الكلمات في حلقها، فهي حتى لا تعرف بم ستنادي.. ولا كيف ستنادي.. فاكتفت بأن ذهبت إلى كل سيدة كانت قد مرت عليها، وأقنعت نفسها بأن هذا يكفي الآن ولا داعي للنداءات، خاصة وأن قويدر ليس بها مشتريات، وانتوت أن تنادي بعزبة أخرى..

وبالفعل اشترت وبالفعل باعت وأخذت المال.. وخرجت مسرعة..

خرجت من قويدر وقد انقلبت بشرتها البيضاء إلى كرة دم حمراء بعد أن غطست في بئر الخجل التي سقطت فيها.. وانطلقت وهي دهشة من نفسها.. غير مصدقة أنها فعلتها..

توجهت إلى عزبة إسكندر، جربت النداء على لسانها.. نادت وهي لم تصل البيوت بعد:

- يا بيضا يا..

سكتت تبلع ريقها كأنها تريد أن تسمع نفسها، كررت النداء بصوت أعلى قليلاً:

- يا بيضا يا جبنة..

التفتت حولها هل سمعها من أحد.. لا أحد فيما يبدو لها.. قررت أن تنادي الثالثة بصوت عال وليكن ما يكون، فقد خرجت تتاجر لتأكل من عرق جبينها.. بل إنها أفضل من المقصورات في الزرايب، ينظفن خلف البهائم ومنهن من يعملن في الحقول.. أخذت شهيقًا واستعدت.. لكن قبل أن تنادي الثالثة.. نادتها امرأة من خلفها كانت تسكن على أطراف العزبة:

- اتفضلي يا عمة.. معاك سمنة؟

انتفضت مستورة من لا شيء.. التفتت خلفها ناحية الصوت.. رأت المرأة.. دعت ربها ألا تكون هذه المرأة تعرفها.. دلفت إلى البيت..

- أيوه يا نور عيني.. عايزة كم حتة..

قليل هي بيوت الفلاحين التي تشتري السمن أو الجبن فهن أهل بضاعة، وكانت مستورة تعرف أنها لن تبيع إلا في المركز.. لكن هناك بعض البيوت الميسورة التي لم تكن تربي المواشي قد صادفت البائعة الجديدة واشترت منها القليل..

وجدت مستورة أن النداء له أهميته.. فدخلت العزبة وأغمضت عينها.. ونادت بعلو صوتها:

- يا بيضا يا جبنة.. يا صافية يا زبدة..

تجرأت وتغلبت على خجلها برفع صوتها.. فخرج من حلقها به رنة جميلة، ليس من جمال صوتها بل من توتر أحبالها الصوتية.. بدأت النساء يفدن إليها خارجات من بيوتهن.. كثير منهن بائعات وقليل منهن مشتريات..

خرجت مستورة من إسكندر وقد أخذت خاتم الصنعة، وعرفت بـ«مستورة بائعة السمنة»..

اتجهت إلى كوبري إسكندر خارج العزبة.. حيث تأتي السيارات من عزبة «الفيومي» متجهة إلى الدلنجات.. وضعت مستورة طستها على بسطة الكوبري العريضة وجلست بجواره تلتقط أنفاسها، وتنتظر سيارة..

شردت تفكر في حالها.. مر جزء من الشريط على ذاكرتها.. انكسر بصرها.. ارتعشت شفتاها.. خنقتها عبرة فدمعت عيناها.. فأشاحت بعنقها كأنها تنفض عنها تلك المشاعر التي تدفع إلى العجز والكسل..

فتحت باب مخيخها ليوسف فولج على حصان يصهل.. وطرد كل وساوسها.. تقوت بذكراه.. تمددت شفتاها المترتعشتان بشبه ابتسامة.. رأته يمر أمامها يرتدي مريلة المدرسة وعلى ظهره الحقيبة السوداء.. ثم رأته يمر أمامها يرتدي بذلته وكرافتته وينحني على يدها يقبلها، ثم رأته يمر أمامها يركب سيارته وينزل فيفتح لها الباب ويمد إليها ساعده فتستند إليه، وهي تعاتبه مازحة:

- اتأخرت عليَّ ليه يا بن عبد البديع.. ولَّا إنت ركبت عربية ونسيت أمك يا وله؟!

اختلط أزيز سيارة يوسف الموهوم، بأزيز سيارة وفدي المتهالكة القادمة من بعيد، فأفاقت تنظر نحوها، هالها عدد الركاب المتزاحمين فوقها كأنهن عمال ترحيلة.. كيف ستركب بينهم.. بالتأكيد بينهم من يعرفونها سيسألونها وستضطر للإجابة، قالت لنفسها وهي تنهض:

- الدنيا مش هتطير.. كفاية كده النهارده..

لم تتردد كثيرًا فحملت طستها.. وهربت مسرعة عائدة متلهفة إلى يوسف..

أخذته في حضنها.. طفقت تقبله في كل جسمه.. جاءها الشيخ مصباح يطمئن عليها فطمأنته.. ورأى في عينيها سعادة وقوة فدعا لها وانصرف.. وعادة تداعب يوسفها.. وتنظر من السماء المتسعة أمامها..

ظلت على هذا الحال أربعة أعوام.. لا ينغص عليها سوى نظرات الشفقة من جاراتها، وأنها صارت أقل مكانة لديهن خاصة زينات.. لكنها كلما نظرت إلى يوسف الذي يكبر أمام عينيها يومًا بعد يوم.. يهون كل شيء وتتبدل نارها جنة.. وتستعذب ما تقاسيه..

لم ينقذها عملها هذا من مخالب فقر السبعينيات، ولكنها حاولت أن تعيش بالقروش القليلة التي تكسبها..

-33-

بالليل وضعته رغم أنفه وسط الطست كي تحممه.. أبدى في البداية غضبه واستياءه ورفضه التام.. لكنها أقنعته أن هذا كي يبدو أجمل الأولاد غدًا.. وحتى يصير أجمل من جميل ابن زينات.. وعلى ذكر جميل ابن زينات، ارتخت أعصاب يوسف وكف عن عناده وترك نفسه لأمه.. ولم يزعجه سوى رغاوي الصابون التي ملأت عينيه.. فيصرخ في أمه:

- حاسبي يامه.. عينيا يا مه..

- معلهش يا حبيبي.. خلاص استحمل دقيقة واحدة..

لكنه إن سلم من الصابون، فلم يسلم من ضحكات حلاوتهم الساخرة وهي تقف عند باب الحجرة..

- ياد الهنا ياد الهنا.. يوسف حموه ف القنا..

صبر عليها على غير عادته حتى تنتهي أمه من «مرشه».. لكن حلاوتهم استمرت في إغاظته، فلم يتمالك أعصابه، وانسل من بين يدي أمه.. خارجًا

من الطست مندفعًا.. فاندفعت حلاوتهم أمامه، وقد كانت متأهبة لذلك بالطبع..

- استنى يا يوسف.. كده يا مقروضة تستاهلي اللي هيجرالك..

نهضت مستورة خلفهما.. انطلقت حلاوتهم إلى الشارع، وكاد يوسف يقفز خلفها لولا أنه تذكر وضعه غير اللائق فضبط أعصابه.. وضغط على أسنانه ومرر يده على ذقنه:

- والله لاوريكِ..

هدأته مستورة ووعدته بأنها ستنال منها، بل ستمسكها له.. فاستكان لها، وعاد إلى موقعه وسط الطست..

كان يوم عيدها عندما رأته بالمريلة «البيج» يحمل حقيبته وينطلق متبخترًا بين أقرانه يدوس بخفة في حذائه الجديد.. فأنساها ذلك أنها صرفت جل ما ادخرته على ملابسه واحتياجاته..

بعد أيام من دخوله جلست تفكر.. فقد خشيت أن تنفد نقودها فلا تستطيع أن توفر له طلباته، فهي لا تريد أن تحرمه من أي شيء، فلا بد أن يظل أفضل أقرانه، لكن تجارة الجبن يوم حلو ويوم مر..

اشتكت للشيخ مصباح حالها، ورغبتها في أن توفر ليوسف ما يحتاجه حتى لا يصير مثل أختيه..

اقترح عليها أن ترحل بتجارتها من الدلنجات إلى دمنهور..

- هناك هتبيعي أغلى.. وبعيد عن عيون الناس..

أعجبها الاقتراح.. وأهم ما فيه أنه سيبعدها عن المشفقات والشامتات.. وحتمًا سيكون المكسب أكثر من نساء العزب والمركز.. فبندر دمنهور يسكنه الموسرون والمتلهفون لمثل هذه البضاعة.. جلست ليلتها شاردة تفكر.. فالتجربة ليست سهلة على امرأة في الأربعين.. ثم أسكتت عقلها قليلاً ومكثت تنظر أمامها حيث جلس يوسف إلى الطبلية وأمامه دفاتره.. يكتب في كراسته ثم يمسح ما كتب.. فابتسمت..

-34-

من أكثر الأيام التي ذكرت تفاصيلها كاملة.. استيقظت من النوم بنشوة الصبيَّة التي ستخرج إلى رحلة شتوية مع والدها، سترتدي سترتها الجديدة وتشد سير حذائها، وتمشط شعرها وتحدد مواقع «توَكها» على رأسها، وتشد عليها طرحتها.. وبرهبة الصبية أيضًا التي ستدخل عالمًا غريبًا عليها تتلفت يمينًا ويسارًا وقلبها يعلو ويهبط..

سخنت الماء ثم صبته في الإبريق.. توضأت وهي تهمهم بأدعيتها، صلت وتوسلت إلى ربها أن ييسر أمرها.. تحركت بخفة في فناء الدار تجهز حاجتها.. فأعادت النظر في ترتيب السمن والجبن ولفة الورق المقوى التي تلف به قطع الجبن أحيانًا.. فوجئت بصوت رعد ومطر يهطل بشدة..

لم ينقبض قلبها ولم تتراجع عن قرارها.. فهي مدفوعة بنشوتين نشوة العمل والرغبة في المكسب من أجل يوسفها، ونشوة الرحلة إلى مسقط رأسها..

أوصت حلاوتهم بأخيها وأوصت يوسف بأخته، وأمرتهما أن يذهبا للغداء مع فاطمة ثم يعودا إلى الدار.. أخذت جراب النقود القماشي.. راجعت النقود

فيه.. تغير وجهها.. فقد فقدت شيئًا.. قلبت الجراب على وجهه.. كادت تمزقه.. تريد أن تحافظ على أعصابها.. لم تجد «البريزة».. يا للكارثة! إنها أجرة مواصلتها.. قلبت عليها الصالة.. دفعت الباب ودخلت إلى عبد البديع الذي يغط في نومه.. الحجرة مظلمة وضعت يدها أسفل المرتبة تحت رأسه تتأكد من شيء ما.. وجدت علبة الدخان الصفيح.. أخذتها وفتحتها وجدتها ملأى بالدخان.. أدركت أنه أخذها.. لو كان الأمر بيدها لصفعته على وجهه.. كتمت غيظها وبلعت دمعها.. دارت حول نفسها.. ولم تتشاءم بعد من تلك الرحلة التي تزداد صعوبة مع اقتراب البداية.

فكرت أن تستعين بصفية، لكنها تراجعت فقد استلفت منها الكثير.. خطر على بالها الشيخ مصباح.. فلن يمتنع بالطبع.. كانت ساعة فجر.. وكان الجو ممطرًا، لكنها تعودت أمر المطر ومن طول العشرة تكيفت معه، فكان لها قرطاس بلاستيك صنعته من «شكائر» الأسمدة التي يأتي بها الفلاحون من الجمعية، أخاطت أربع شكائر مع بعضها.. ثم غطت بها الطست، حاولت حمله، لم تستطع نادت على حلاوتهم فقامت متكاسلة..

- ارفعي يا بت قصادي..

كان الطست ثقيلاً.. كاد يفلت من يدي حلاوتهم.. فتداركته أمها..

- سيبي يا خرعة..

ثم دخلت حلاوتهم وكأنها لم تستيقظ.. ضبطت مستورة وضع الشكائر وجعلت أطرافها تحت أصابعها حتى تحمي الطست وتحمي نفسها من دفقات المطر.. وصلت بيت الشيخ مصباح نادت.. بعد حين خرج لها عمه العجوز.. استغرب أمرها.. وكان أمر النداهة منتشرًا أيامها بشكل كبير، ونما

إليهم خبر الغولة التي سرحت هي وعيالها في الناموسية بجوارهم، فقال من خلف الباب، بصوت خائف:

- انت مين؟

- أنا مستورة يا عم علي..

- لأ.. إنت النداهة..

أقسمت له بالأيمانات المغلظة أنها مستورة فلم يصدق، وقال لها:

- طب عايزة إيه يا مستورة؟

- الشيخ مصباح..

- الشيخ في الجامع..

وقفت تفكر ماذا تفعل.. فسألها قلقًا على ابن أخيه:

- عايزة إيه منه؟

- عشرة صاغ.. لغاية ما ارجع..

وارب العجوز الباب قليلاً ليلقي لها ب«العشرة صاغ» حتى إذا كانت الجنية انصرفت.. لكن عندما رآها من فتحة الباب.. رق لحالها واستتفه حاله ثم فتح الباب كاملاً.. فاغرورقت عيناه.. ثم أعطاها البريزة وهو يدعو لها:

- الله يعينك ويسترك يا مستورة.

كتمت مستورة لوعتها وانكسارها وصعبت عليها نفسها لرقة العجوز لحالها.. واستدارت هاربة..

سارت تنزع أقدامها من الوحل انتزاعًا.. وتحسب ألف حساب قبل أن تدوس على الأرض، فأي مخالفة حركية فيزيائية بين الكتلة والسرعة والمساحة والحجم، ستنتج عنها زحلقة مدوية كفيلة بأن تطيح بكل آمالها..

الشمس لم تشرق بعد.. والسماء تمطر حينًا وتجفف دموعها حينًا.. ومستورة مستمرة في طريقها.. سارت على البر القبلي لترعة الأفندية.. اقتربت من عشة عباس المشهورة.. تداعت على ذاكرتها حكايات السيدات التي كانت تسخر منها، لكن هي الآن بينها وبين العشة أمتار.. ركبها ترتعش.. قد تخرج لها الجنية أم شعر.. قد تراها تمشط لأولادها قرب العشة.. قد ترى جثة القتيل عبد الشافي الذي ذبحه إخوته وألقوه هنا.. فقد خرج كثيرًا لأناس قبلها.. وكل أهل الغنام يحكون عن العشة وبلاويها.. خاصة وأن المقابر في الجهة المقابلة لها في الشاطئ الآخر من الترعة..

ألقت بنظرها أمامها، وحاصرت بؤبؤها بحدقتها حتى لا يرى غير الهدف، فلا تطلع مرغمة على ما يجري حولها، سواء لدى العشة أو في المقابل لها في ترعة الأفندية.. لكنها لم تستطع أن تغلق أذنيها فأرسلتها.. سمعت «تضبيش» أي صوت عوام يضرب بذراعه الماء.. يا الله! صدق الحاكون وإن كذبوا.. لم تعر الصوت انتباهًا.. ظلت تشد بصرها إلى الأمام.. سمعت صوت احتكاك القش، بجانب العشة ثم صوت تثاؤب.. بلعت ريقها.. خففت الخطا بأقدام مرتعشة.. سمعت صوت مناد يصيح:

- طلع البقرة يا حمدي..

انتفضت وكادت تلقي ما فوق رأسها وتسلم نفسها للريح.. لكنها أدركت نفسها، وأرخت أعصابها عندما تأكدت أن المنادي هو عم محمد يحيي

الساكن بعد العشة بقليل يوقظ ابنه.. أخيرًا تخطت الحزام المرعب للعشة، وآنست بصوت الإنسي..

لم تلبث أن هدأت نفسها قليلاً، حتى راعها شراسة كلاب الحاج صابر في عزبة عوض الله قبل أن تصل إليهم.. وكأن الخوف يولد خوفًا.. فأخذت تتمتم بأدعيتها.. لمحت أكبرهم يحدق فيها من بعيد.. قالت الآن سيعلنون إشارة البدء، لن تتردد أن تلقي الطست على أكبرهم.. لكن الكلاب كانوا أكسل من أن ينهضوا في ذلك البرد والمطر.. بل لعلهم يقولون: من هذه المجنونة التي تسير في هذا الطقس؟!

وصلت عزبة كردي ثم درويش.. انقطع المطر وبدأت الشمس تحاول أن تفك قيودها وتخرج من قشرة بيضتها.. تلون وجهها من شدة البرد ورشح أنفها وانتفخت شفتاها.. وكلما همت نفسها أن تخذلها وتنقبض من حالها المبكي.. تذكرت يوسف.. النبي والصبي..

وصلت معدية درويش الخشبية وهي عبارة عن نخلة تم قطعها وتنعيم سطحها ومدها بين شطي ترعة الأفندية للانتقال من البر القبلي إلى البحري للمتعجلين الذين لا يريدون أن يمشوا ما يقرب من مائتي متر كي يعبروا من على الكوبري، وتلك النخلة كانوا يسمونها «السهم».. فعرضها لا يتعدى أربعين سنتيمترًا..

كانت تلك النخلة هي أخطر مراحل الرحلة؛ فالمرور من على هذا السهم صعب على المار خاليًا.. فما بالها وقد حملت فوقها طستًا ثقيلاً وأيضًا المطر وأقدام من سبقوها عليه قد بللته وتركت فيه آثارًا طينية..

أخذت نفسًا عميقًا.. تمتمت بدعاء.. وضعت قدمها على المعدية ثم تراجعت تخشى المغامرة بما فوق رأسها.. ثم مدت قدمها اليمنى ثانية.. سمعت مناديًا:

- استني يا خالة.. عنِّك.. عنِّك..

شاب طيب من عزبة درويش تبرع بأن يحمل عنها الطست ويمر به فهو أخبر منها بالمعدية..

- ياما إنت كريم يا رب..

قالتها في سرها، ثم عبرت وراءه.. وهي تدعو له..

- ده واجب علينا يا حاجة..

- يبارك لك في صحتك وعيالك..

حملت الطست واستأنفت رحلتها.. حتى وصلت أبو وافية.. ثم الاتحاد.. وهناك انتظرت مستورة الأتوبيس وكانت تسميه «الشركة».. وهو يأتي من الدلنجات مارًا بأبو سعيفة متجهًا إلى دمنهور.. بكت السماء ثانية.. فصار المطر يصفعها على وجهها وعلى ظهرها ويحيطها من جميع الجوانب.. ليس هناك جدار يسترها اللهم إلا الطست فوقها.. لكن يخفف عنها الأذى أنها في مكانها الذي وقفت فيه ترى عزبة أبو سعيفة موطن الألم القديم.. تنظر هناك ثم تلتفت عنها مسرعة.. وتحمد الله على نجاتها رغم ما هي فيه بعد النجاة..

وصل الأتوبيس شبه الفارغ من الركاب.. ركبت بصعوبة بمساعدة ولاد الحلال.. كانت الأجرة ثلاثة صاغات.. أصر الكمساري أن يأخذ على طستها مثلهم.. ولكنها أبت فما تملك إلا البريزة، ولا تدري على أي حال ستعود وعلا

صوتها في الأتوبيس.. سمعها محمد الغنام أحد أقارب زوجها الساكن في الدلنجات.. فسارع بفض الاشتباك.. ودفع لها ثمن تذكرة الطست.. فرفضت بإباء.. وأخرجت ما معها كي تدفع له ما دفع.. فأقسم أيمانات مغلظة ألا يأخذ منها شيئًا.. فلما وجدته مصرًا كشفت الطست، وتناولت مربعًا ورقيًّا، ثم وضعت فيه قطعتي جبن ولفتها، وأعطتها إياه.. امتنع.. فأقسمت بالأيمانات المغلظة.. فأخذها..

التفت أحد الركاب لبضاعتها، فطلب الشراء، فنشطت وكشفت جزءًا من الطست، وأخرجت قطعة أخرى ولفّتها في مربع ورقي وأعطتها للرجل..

- بألف هنا يا خويا..

انطلق الأتوبيس مع الشروق، وقد استبشرت خيرًا.. مضت تلقي بنظرها على «أبو غرارة» والميهي والمسين.. ثم الحجانية.. انتشت وكادت تطير من السعادة وهي تتنسم هواء دمنهور الذي لم يكن غريبًا على أنفها.. شعرت وكأنها مبعوثة إلى إحدى الجامعات الأمريكية، أو في رحلة سياحية إلى باريس..

أخيرًا وصلت.. نزلت وعينها معلقة بالمباني كأنها تريد أن تحتضنها.. تذكرت بيتها وتذكرت روز صديقتها فحنت حنينًا شديدًا ثم دمعت عيناها.. ثم انتبهت، وقد خشيت أن يراها أحد فيعرفها، فتسمع الشفقة والمصمصات..

توجهت إلى السوق مرتبكة هالها عدد النساء البائعات والهرج والمرج والأيمان والشتائم.. أدركت أنها لن تستطيع أن تثبت وسطهن.. ترددت.. توكلت.. فمن أجل يوسف يلين الحديد.. اختارت مكانًا شاغرًا بجوار إحدى البائعات التي توسمت فيها خيرًا.. وضعت طستها وجهزت حنجرتها ونادت.. فخرج الصوت قويًّا له تنغيم:

- يا بيضا يا جبنة..

لفتت انتباه جارتها التي توسمت فيها خيرًا، لكن جارتها تلك قلبت سحنتها بشكل مخيف.. واستغرب نساء السوق الخبيرات جرأة تلك المحدَثة، وأخذها المكان هكذا دون استئذان.. فبالطبع لم يتركنها تأخذ مكانها بسهولة.. فسألتها التي توسمت فيها خيرًا بجفاء غيَّر رأي مستورة فيها:

- إنت منين يا حلاوتهم؟

سمعت مستورة السؤال وكانت تنتظره, وإن كانت لم تكن تنتظره من تلك.. لكنه سئل.. أخذت نفسًا عميقًا.. حاولت أن تبدو ثابتة، حتى لا يطلعن على دقات قلبها وذعرها فيلتهمنها، فردت بقوة:

- من بلاد الله الواسعة..

- طب قومي من المربع ده.. واسرحي في بلاد الله الواسعة..

حافظت على مستوى صدرها المخفي وراء طرحتها حتى لا ينكشف صعوده وهبوطه، فحفزت نفسها ونادت، لتؤكد قوتها:

- يا بيضا يا جبنة..

نهضت المرأة مغتاظة، ودنت من مستورة وأخذت قطعة جبن من طستها، وألقت به على الأرض:

- ولو ما سرحتيش بعيد.. آني هندوسلك جبنتك دي بمداسي..

انتبه للأمر كثير من النساء بائعات وزبائن، فانتظرن في شغف رد النجمة صاحبة الوجه الجديد على شاشة السوق.. والتي بدا على وجهها البريء المدهوش أنها ستعتذر منكسرة وتنسحب إيثارًا للسلامة..

بلعت مستورة ريقها.. الأمر صعب وهي لم تواجه ذلك الموقف من قبل.. رأت يوسف واقفًا أمامها يلعب.. رأت المرأة تفعل به ما فعلت بقطعة الجبن.. الوجه البريء انقلب إلى قطعة كاوتش.. اتسعت حدقة عينها.. تحفزت.. ضغطت على أسنانها فبرزت عظمة الفك من جلدة خدها.. انحنت بمرونة وسرعة فسحبت قبقابها من قدمها.. وقفزت على المنحوسة التي فعلت ذلك والتي كانت ظنت بها خيرًا. فانهالت عليها ضربًا وعضًا.. حاولن بعض النساء التدخل لكنهن لم يسلمن من مستورة.. انتهت المعركة سريعًا كمعارك كل النساء عندما تنتقل إلى مرحلة القباقب..

سكت النساء وعادة المرأة تهمهم وتشتم.. ولكنها ذليلة مهزومة.. ومستورة تتصاعد أنفاسها في صدرها ولا تصدق ما فعلته ولتخفي أمرها وتحافظ على رصيدها المرعب، ضبطت وضع طرحتها.. أخذت تنادي بصوت عال، وبلكنة مرتعشة لا يشعرها أحد سواها:

- يا بيضا يا جبنة.. واللي مش عاجبه هياخد بالجزمة..

أخذت موقعها الذي أرادت.. شعرت بنشوة النصر.. مع الوقت تواءمت مع المكان..

لكن يبدو أن معركتها التي انتصرت فيها، كما أخافت البائعات أخافت أيضًا الزبائن.. لذلك لم تبع الكثير، علاوة على أنها جديدة في المكان وليس لها زبائن.. انفضت السوق ظهرًا، وكان قد بقي معها من السمن والجبن أكثر مما باعت.. فلم تدر ماذا تفعل..

- الأرزاق على الله..

حملت طستها وتوجهت نحو الموقف لتستقل الأتوبيس عائدة.. كانت قريبة من حيها تذكرت روز.. وسوس إليها حنينها أن تذهب لتراها فهي في أمس

الحاجة إلى أحبابها.. ثم استنكرت نيتها فروز قد انشغلت بحياتها وليس بالضرورة أن تسرها طلة مستورة المفاجئة، وإن سرتها فستكون مهانة لها ولأبيها أن يعلم نساء الحي أن ابنة الشيخ عبد الرحمن تبيع السمن والجبن وتدخل معارك قبقابية مع نساء السوق..

لكن كانت لهفتها إلى روز شديدة.. تحايلت على منطقها، وقالت إن سألها أحد عن الطست، فستقول إنها في زيارة لإحدى قريباتها هنا.. وإن لم تجد روز فيكفي أن تزور حيها وتتنسم هواءه..

دخلت الحي لا تزال تذكر الشوارع جيدًا.. فالبيوت كما هي.. والشارع فارغ إلا من أطفال يلعبون، وشخصين جلسا أمام أحد البيوت يشربان الشاي ويتناقشان بحدة..

- اللي عمله خيانة ما لهاش اسم تاني..

- الله يرحمه عمل اللي عليه.. اتفاوض وجابلهم اللي ما كانوش يحلموا بيه.. وهم اللي رفصوا النعمة برجليهم..

- فلسطين مش كوباية شاي هنخمس فيها مع اليهود.. هم شفطة وإحنا شفطة.. دي بتاعتنا..

- أهم طفحوها كلها..

- اللي اتاخد غصب مسيره يرجع.. لكن اللي يتاخد بسلامات وكام بوسة يبقى عليه العوض..

- والله آني شاكك إنك شيوعي لإما إخوان..

- وآني متأكد إنك موالس مع الحزب الوطني.. امشي قوم من هنا..

تذكرت شخصين آخرين فابتسمت.. بعد عنها الصوت حينما ابتعدت.. توقفت أمام بيتها.. ثم التفتت إلى البنات يلعبن.. رأتها طفلة صغيرة في الجهة المقابلة، فنظرت إلى طستها فوق رأسها متأملة، ثم هرولت الطفلة بعيدًا، تابعتها مستورة دهشة، فعرفت ما انتوت الطفلة لكنها لم تستطع منعها، فرفعت الطفلة عنقها وراحت تنادي:

- يا ماما يا ماما.. بتاعة السمنة جت يا ماما.. يا ماما يا ماما.. بتاعة السمنة جت يا ماما..

أخذت مستورة لم تدر ماذا تفعل.. هل تتنكر أم تثبت.. خرست.. خرجت امرأة في الشرفة فرأت مستورة فنادتها:

- معاك سمنة يا ست؟

بلعت مستورة ريقها، سكتت قليلاً، ثم أمعنت النظر في المرأة فانتشت سعيدة، وقالت:

- أيوة يا ست فاطنة..

- طب تفضلي ادخلي.. دخليها يا نسمة..

تقدمت بها الطفلة إلى البيت الذي كانت تعرفه هي جيدًا.. فتحت لها الباب.. دلفت مستورة.. نسيت أنها تحمل بضاعتها على رأسها، وكل ما يشغلها هل ستعرفها روز؟

نزلت روز من أعلى الدرج إلى بهو البيت.. لا تزال بسحرها وبهائها وخفة ظلها..

- أهلاً وسهلاً تفضلي اقعدي..

تقدمت روز لتضع من على رأس مستورة طستها.. فلفتها ملامحها.. فسكتت قليلاً وسكتت مستورة.. وقفت روز برهة تتفحص فيها من تحت الطست ثم أنزلت الطست عنها، وعين روز معلقة بها، فابتسمت مستورة، فصاحت روز:

- مستورة!!

احتضنتا طويلاً.. فبكتا من حر اللقاء.. وكلما انتهيتا أعادتا الكرة.. مكثتا طويلاً على هذا الحال.. ثم أجلستها روز وأكرمتها ولو استطاعت أن تحملها فوق رأسها لفعلت.. ولما أفاقت روز من سكرة فرحتها سألت مستورة عن حالها وما فعل الزمان بها..

خجلت مستورة في البداية أن تحكي حالها، خاصة وأن ابنة روز قد تولت أمر فضحها، وهي لم تنف بداية، فلن تنفي الآن.. لكنها حكت سريعًا.. وروز كانت أذكى من أن تبدي شفقة على صاحبتها القديمة، بل رحبت بذلك وأكثرت من ثنائها:

- طول عمرك شاطرة يا بنت الإيه.. والله براوة عليك..

ارتاح صدر مستورة لذلك.. والأكثر من ذلك.. خرجت روز إلى الشارع.. فنادت جاراتها وحماتها وأمها.. فاندهشت مستورة هل تود روز فضحها.. ولكنها فتحت لها بذلك باب رزق لم تكن تحلم به..

جاء النساء وعرفنها ومن كانت غريبة حكت لها روز من تكون مستورة.. فرحبن بها.. وانتشين لمقدمها فهن كن في انتظار بائعة سمن من قديم.. وناديها بأم يوسف.. وكفى بها نعمة..

جلست بينهن وأوقدت تحت السمن حتى تسيحها لهن وأخذتهن الحكايات وفتح الله لها قلوبهن.. وكانت حفاوتهن بها كأنها سيدة قصر، وكانت مستورة صاحبة لباقة وفن في الكلام فجذبت الميسورين لها.. وتواعدت معهن على معاد دائم، واتفقت معهن أن تأتي الأسبوع القادم.. وباعت مستورة كل ما تبقى معها.. واحتضنت روز على موعد في الأسبوع القادم..

-35-

وصلت مستورة بيتها والشمس تلملم ثيابها للرحيل.. عبد البديع صرخ في وجهها ليعلن عن قلقه عليها.. فأخرجت له باكو دخان فسكت..

سألت حلاوتهم عن يوسف فأخبرتها أنه يلعب عند الترعة، فأرسلت حلاوتهم في أثره.. فجاء فاحتضنته بقوة.. وقبلته في جميع جسده..

- وحشتني يا يوسف..

- وإنت كمان يا مه..

- إيه اللي ف وشك ده؟

تولت حلاوتهم الإجابة:

- اتعارك يا مه مع جميل.. وخربشه في وشه..

مستورة بضيق:

- هو اللي غلبك؟

تولت حلاوتهم الإجابة أيضًا:

- لأ يا مه د يوسف وقعه في الترعة ومرمط بكرامته الأرض..

احتضنته ثانية كنوع من الجائزة.. ثم أفاقت، فقالت له كإجراء روتيني:

- أوعاك تتعارك تاني مع حد.. إنت فاهم..

- اللي هيضربني هضربه..

لم تشأ أن تجادله فهي تعرفه جيدًا، سألته عن المدرسة، فتولت حلاوتهم الإجابة أيضًا:

- ما راحش يامه..

غضبت وألقت بحنانها وقلبت وجهها:

- ليه يا وله؟

- علشان باكره المدرسة.. ومش عايز أروح تاني..

لم تتمالك نفسها فصفعته على وجهه:

- ربح لما تاخدك.. هتروح غصبن عنك ولو غبت تاني هقتلك..

انفردت بنفسها، وقد أفسد عليها ولدها فرحتها بتجارتها.. وكانت تود أن تخرج له ثانية فتصفعه وتركله.. بكت بحرقة، فقد خشيت أن يكون مصيره كمصير أختيه الغبيتين، فقد مضت سنواته الأولى في المدرسة ولا يزال عاديًّا.. لم يكن بليدًا ولكنه ليس كما تريد.. فخشيت أن يضيع حلمها وينهار صرحها.. فتموت كمدًا..

-36-

طلبت من السيد يوسف أن يكتب هذه الصفحات سريعًا، فيختصر قصته التي هي على هامش قصة مستورة ولا تعنينا في هذا المقام كثيرًا.. ثم نعود ثانية إلى مستورة.. لكنه كان مثل أمه يحب الحكي ومبتلى بداء بالثرثرة -عافانا الله- فقال سأحكي أنا واكتب أنت، قال:

صحبتني سمعة سيئة من صغري كأثر طبيعي لشقاوتي وتهوري.. لذا كان يسهل تشخيصي من أول وهلة أنني عديم النفع.. عديم الأدب.. عديم الدم.. لا يرى أحد من حولي في سلوكي أو وجهي أي بادرة نبوغ أو تفرد ولا أرى أنا.. وبالتالي لن أكون ما تحلم به مستورة.. خاصة وأنا ابن لمثل عبد البديع وشقيق لمثل فاطمة وحلاوتهم!

أذكر أنني أول ما تمكنت من حمل شيء كان المستفيد الأول من ذلك هي مستورة -كما تسميها في قصتك- فضربتها بـ«السبرتاية» فشققت لها جبهتها، كما كنت أرى أبي عبد البديع -أيضًا كما سميته أنت- يفعل ذلك أحيانًا..

كانت لي خصامات ومحاكمات وقصص مزعجة مع طوب الأرض.. فكنت في سنواتي تلك نكسة ونكبة وخيبة أمل على مستورة تلك المرأة العادية التي جعلتَ منها بطلة الأبطال.. أدخلتني المدرسة رغم أنف أبي وأنفي..

اقترح عبد البديع عليها اقتراحًا منطقيًا واقعيًا مريحًا لها ولي:

- سيبيه يشتغل وسط العيال في الأرض يمكن يفلح في الفلاحة..

وكنت بالطبع أرجح ذاك الرأي الحكيم.. فالعمل في الحقل يعني الصحبة والحرية والشقاوة والتعدي على خلق الله..

صاحت مستورة واستعدت للقتال، فأنا حلمها وثمرة عمرها، لن تفرط في أمر تعليمي بسهولة:

- يوسف لازم يكون أستاذ..

- موت يا حمار!

سكت عبد البديع بعد أن تمتم بالجملة الأخيرة ولعله كان يقصدني.. وانصرف من أمامها ولم يتعنت في هذا الشأن كعادته، وذلك لأن الأمر لم يكن ليكلفه شيئًا.. وبالفعل أكملت دراستي..

بعد أن عادت من دمنهور وصفعتني القلم إياه.. ذهبت بي في اليوم التالي كإجراء وقائي إلى الشيخ مصباح، لعله يصلح حالي ويعظني فأهتدي.. فسرت معها أريحها، وكنت أشفق عليها من حلمها المبالغ فيه في شخص مثلي.. فقد كنت على يقين أن الصواب في كل تصرفاتي.. وعليه فإنها لو أتت لي بملائكة من السماء، فلن أتغير، فالمدرسة كريهة بغيضة إلى قلبي والمدرسون وجودهم في المدرسة كوجود أبي في حياتنا.. والحياة أجمل بكثير دون مواعيد صباحية مزعجة أو كراريس وأقلام..

تركتني عند الشيخ مصباح وخرجت.. لم أجلس بجواره.. جلس هو على أريكته وجلست أنا على الأرض -هكذا كان الإتيكيت أيامها- سحب من صندوق بجواره جورنالاً قديمًا عليه صورة الرئيس مبارك يؤدي اليمين، ثم نظر إلي متحفزًا، سألني بغلظة كأنه يستعد لضربي:

- بتعرف تقرا؟

قلت بجرأة غير متوقع للعواقب:

- لأ..

قال لي، وكأنه قد أعد الإجابة سلفًا:

- تبقى بقرة..

بلعت لعابي وأطرقت خجلاً، ولأول مرة أخجل من شخص يسبني..

- أيوه بقرة.. ومكانك الغيط أو الزريبة..

احمر وجهي أكثر وانتفخت أوداجي أكثر، ولو كان في استطاعتي حينها لضربته بقبضتي في أرنبته مباشرة.. استطرد ساخرًا:

- الكلام زعلك؟ حساس قوي! لو بتحس كنت حسيت بأمك اللي انحنى ضهرها بين الرجالة علشان توكل بغل زيك..

تمنيت وقتها لو كان معي سكين لأخرجته ودسسته في كرشه، ولولا أنه كان يمسك بعصا «محلب» من النوع الأصيل خشيت أن يدافع بها عن نفسه في حالة الهجوم، لهجمت عليه وضربته وجريت..

استطرد:

- عايز تبقى إيه أمال؟ شيخ منصر ولا تملّي؟ ولا تلف مع أمك بالسمنة والجبنة!

أخذ الجورنال من جواره وأشار به إلي:

- شايف الورق ده.. ده اسمه جورنال.. مليان أفكار وأخبار وحاجات اسمها نظريات بيفهمها اللي عايشين على وش الأرض مش اللي زيك..

لم تنتهِ وصلة الردح، بل اندفعت خارجًا، مع أول انفراجة للباب حيث دخلت خالة صدقية لتهدئ زوجها.. انتهزت الفرصة ومرقت من الباب وأنا كلي عزم أن أعود ليلاً فأحرق عليه بيته هذا الوغد سليط اللسان، وأحرق جرائده..

تشاجرت مع مستورة، وضربت حلاوتهم بحديدة الفرن ففتحت رأسها.. ولو كان أبي في البيت حينها وأبدى اعتراضه لفقأت عينه الأخرى.. سألتني مستورة ماذا فعلت مع الشيخ مصباح.. فرددت بغضب كأني أُسمعه:

- ده لا شيخ ولا يعرف حاجة عن المشيخة.. ده راجل لسانه زفر ويستاهل قطعه.. وابن... وابن...

حاولت أمي أن تسكتني أسكتها أنا.. فضربت اللمبة الجاز بقدمي فأطفئتها وتناثر «الجاز» في أنحاء الحجرة.. ثم خرجت هاربًا من البيت.. ولم أترك صبيًّا في الشارع حاول مداعبتي إلا حولت مداعبته إلى مشاجرة.. وانتقمت لنفسي منه.. ثم همت في الغيطان.. ثم عدت في آخر الليل وبت ليلتي أشتعل نارًا.. أكاد أنفجر..

مرت أيام وأنا لم أنس هذا الموقف.. ولم أنل منه.. فأنا أريد أن آخذ بثأري وأهينه وسط العزبة كلها.. وجاءتني أفكار سخيفة كنت أتخيل فعلها..

أستحي الآن من ذكرها.. مقابلتي به أربكتني وطريقته في تعنيفي فجرت بداخلي بركانًا..

أوقفني الأستاذ عبد الوكيل في الفصل يسألني السؤال نفسه، وخلته أبرم صفقة مع الشيخ مصباح، وقد تفرغا لإهانتي:

- بتعرف تقرا؟

ترددت في الإجابة فكرت قليلاً.. بلعت ريقي.. زممت على شفتي.. قررت لو شتمني لن أسكت هذه المرة.. سألني ثانية، أجبته بلا تردد:

- أيوه..

مد لي الكتاب، وقال:

- طب اقرا..

قرأت الجملة بتعتعة.. لكني قرأتها: «قريتي جميلة فيها أشجار خضراء..»

فجأة ودون سابق إنذار منه أو تخيل مني.. صاح الأستاذ في الأطفال.. أن يصفقوا.. صفق لي الأولاد.. ياللروعة! انتشيت.. دارت بي الدنيا من الفرح.. دارت عيني في مآقيها كأنني أنازع الموت من الخجل.. كانت أول مرة يصفق لي أحد.. جلست كأني أجلس على مقعد طيار.. لون السماء اختلف واكتسى بهاء وجمالاً.. خف غضبي على الشيخ مصباح قليلاً.. قلت في نفسي: ليته كان معي في الفصل ليعرف أني لست كما يظن..

انتفخت فخرًا.. ازداد استيعابي.. ما أسهل تحول العيال! وفي آخر الحصة نفسها.. سأل الأستاذ سؤالاً جديدًا اندفعت رافعًا يدي.. وأجبت قبل أن يأذن لي الأستاذ..

أوجم قليلاً فخشيت أن أكون قد هدمت ما بنيته، لكنه كأنه كان مطلعًا على دخيلتي.. فقال بحماس يشد من أزري..

- صفقوا له..

عدت مسرعًا إلى البيت منتشيًا.. وكل ما يشغلني أن أخبر مستورة وأراها تبتسم في وجهي رضًا عني.. ففرحت بي وقبلتني وأعطتني عشرة قروش.. وددت لو أبلغَت الشيخ مصباح.. مضت أيام وجاء امتحان الشهر فكنت الثاني.. وأخذت شهادة تقدير فكأنني دخلت الجنة.. لم تصدق أمي في البداية.. وجاءت تتأكد من الأستاذ فأكد لها وأثنى علي.. وأنا سأظل أثني عليه طيلة عمري، طارت أمي من الفرحة وأرسلت إلى فاطمة فجاءت من دارها وأمرتها بأن تطلق زغرودة من أجل عيوني.. ففعلت..

قلت لمستورة:

- مش هتقولي للشيخ مصباح؟

فهمت رغبتي.. فكنت أريد أن أخبره أني لست بقرة كما قال.. وأني أستطيع أن أسعد مستورة..

أخذتني مستورة إليه.. لم تجده في البيت.. كان في الكتاب في مسجد العزبة معه ثلاثة أو أربعة أطفال.. أرته الشهادة وهي فخورة تكاد تبكي.. نظرت إليه أتطلع إلى ملامحه.. كنت أريد أن أغيظه فقد اعتبرته ندًّا.. تهلل وجهه سرورًا فتغيرت ملامحي مع تغير ملامحه.. جذبني بقوة إلى صدره كأنه يذكرني أني عيّل.. ولا أصلح ندًّا لمثله.. فجأة كدأب العيال.. ذاب كل الغل الذي كان في صدري ناحيته..

من يومها ألفت الشيخ مصباح وصرت تحت قدمه.. حفَّظني كثيرًا من القرآن.. ولم أبدأ في حفظي بسورة البقرة أو الناس كما يبدأ من يحفظ، بل بدأت بسورة «يوسف» كما أوصت أمي..علمني قراءة الجورنال الذي كان يأتي به كل شهر من أحد أصدقائه الموسرين.. وكان يقرأ أمامي من ديوان المتنبي كلامًا لا أفهم منه شيئًا، فقط كانت تستهويني طريقة إلقائه.. وسمعت في بيته الراديو السحري الذي كان يأخذني إلى عوالم لا حدود لها..

وهكذا كنت أمضي وقتي في المدرسة صباحًا وعند الشيخ مصباح بعد العصر..

أحببت المدرسة.. نشطت بشكل كبير وتفوقت بداية من الصف الرابع.. ومستورة تحفر في الأرض كي تسعدني وتعطيني مصروفي اليومي الذي صار بريزة يوميا.. رغم أن هذا المبلغ يكلفها الكثير من العناء.. وربما استلفتها لي..

كبرت في حجر مستورة سريعًا؛ لأن حجر مستورة يختلف عن حجور سائر السيدات..

لن أطيل عليك حتى تعود لمستورتك..

في الصف السادس أقامت المدرسة حفل عيد الأم واختيرت لأمثل في الحفل.. وكان حذائي قد تهرأ، فقلت لأمي وتوسلت لها أن آخذ حذاء أبي الجديد رغم أنه كان أشبه ببيادة الجيش، وكان قد أعطاه له أحد إبناء أخوته.. إلا أنه كان أفضل مما أرتديه.. فقبلت أمي ودعت أن يظل أبي نائمًا حتى أرجع.. لكن كعادة مستورة وقدرها الجميل استيقظ أبي رحمه الله، وكال لها السباب والشتائم عندما علم أني أخذت الحذاء، فجاءت لي وحدث ما كتبته أنت في المشهد الأول..

لم أذهب يومها للشيخ مصباح، بل همت دون وجهة، حتى جلست على حافة الترعة ناحية الغيطان.. مر بي هو قدرًا..

- مالك يا يوسف؟

قلت له بغضب:

- أنا مش عايز أعيش كده..

هدَّأني..

قال:

- ما حدش فينا بيحب الفقر.. لكن الحياة علشان تبقى حياة..

ثم كأنه وجد أن الموعظة لن تجدي، فسكت قليلاً يبحث عن شيء بجواره، ثم فتش في جيبه.. ثم لم يجد بدًّا، فأشار لي بعصاه..

- إيه رأيك في العصاية دي؟

نظرت إليه ولم أجبه، فقال يجيب:

- جميلة.. صح؟

هززت رأسي بالإيجاب.. قال:

- إيه رأيك لو اديتهالك؟

وكان مجرد أن تمسك عصا الشيخ مصباح أمنية كبيرة وشرف يتطلع إليه كل الأطفال بل وبعض الكبار، فبلعت ريقي أريد أن أتأكد أنه لا يمزح.. فقال:

- خدها لو قدرت..

ثم ألقاها في الترعة من خلفه.. قلت في نفسي: ما هذا الجنون؟ لكني لم أشأ أن أضيع الفرصة، فتسللت من حالتي الكئيبة.. وصار كل همي أن أنال العصا، فهي صارت ملكي والشيخ مصباح كلمته كالسيف.. العصا كانت ثقيلة.. غاصت في القاع، وأنا لم أكن أجيد السباحة.. فترددت، فحفزني..

- خدها دي بتاعتك..

خلعت ملابسي.. وألقيت بنفسي في الماء.. تاهت العصا في الطين.. العصا جيدة والفرصة لن تتكرر ووجدت أني سأصير بها عمدة الأطفال.. صرت أغطس كاتمًا نفسي كما تعلمت من الولد شعبان.. فأبحث عن العصا إلى أن ينفد ما ادخرته من هواء، فأقفز إلى أعلى، فأتنفس ثم أعود.. حتى وجدتها.. فصحت فرحًا.. استدرت خلفي لم أجده.. خرجت سعيدًا بالعصا.. فكنت أسير بها متبخترًا.. اتهمتني أمي بسرقتها فأخذتني إلى الشيخ.. فقال:

- أنا اللي اديتهاله لأنه يستاهلها..

مع هرم أبي وعجزه، صرت أنا رجل أمي.. حمسني ذلك ودفعني إلى الأمام.. أعترف بأني كنت أمر بأوقات أكاد أكفر فيها.. ولكن عندما كانت تحكي لي مستورة سطرًا من حياتها أستتفه أمري، وأجري إلى العصا..

***

ملحوظة: يوسف عبد البديع استطرد في الكلام كثيرًا فحذفت ما قال.. وجاملته فأخبرته أن حياته تصلح رواية وحدها.. وذلك حتى أعود إلى مستورة..

-37-

انتظرت مستورة عم شافعي الذي يمر بشهادات الإعدادية على كل بيت فيه تلميذ فيعطيها لهم ويأخذ الحلاوة.. تأخر في المجيء إلى مستورة.. لم تخرج هي إليه انزوت في البيت تخفي ارتباكها وقلقها.. فهي بين الحين والآخر تسمع زغاريد هنا أو هناك.. أربكتها أكثر زغرودة خارجة من بيت زينات.. فأخيرًا نجح ابنها جميل بعد سنتين في الإعدادية..

أخذت تسب وتشتم الشافعي الذي ركن عند زينات وتأخر عليها.. أرسلت إليه يوسف يستعجله.. أخيرًا جاء الشافعي وجاءت في ذيله زينات على فمها ابتسامة عريضة تعلن فخرها بولدها جميل الذي سيدخل الدبلوم..

لم تبارك لزينات والتهت بعينيها وفكرها مع الشافعي الذي وقف أمام الدار ولم يدخل كأنه يريد فضيحتها، يوسف كان متفوقًا، لكن التفوق أحيانًا لا يكون له علاقة بالنتيجة، علاوة على أنها لم يكن في ذهنها أن يدخل الدبلوم..

بلل الشافعي أنملة سبابته من لسانه ليسهل عليه فرز الشهادات، فبدا كأنه يخرج لمستورة لسانه. فصاحت:

- ما تخلص يا عم شافعي..

- حلمك عليَّ يا أم يوسف..

أطرافها ترتعش، ولعابها سال أنهارًا في حلقها، كأنها هي صاحبة النتيجة، بل بدا يوسف بجوارها هادئًا جدًّا مقارنة بحالتها.. وقفت تنظر إلى الشافعي البطيء حينًا، ثم ترمق زينات من خلفه وهي تنظر في الورق بين يديه متأهبة للخبر حينًا آخر..

مستورة لم تتمالك أعصابها.. فصاحت ثانية:

- ما تخلص..

قبل أن تكمل جملتها أسكتتها حركة من يده، عندما أمسك بورقة مربعة من وسط الورق.. وصاح:

- الله أكبر! ثانوية يا أم يوسف..

كانت بالأمس قد أعدت له زغرودة نذرتها إذا نجح بمجموع عال.. لكن لم يسعفها حلقها، بل اهتزت ركبتاها فكادت تسقط على الأرض من الفرح.. قفز يوسف في صدر أمه يهنئها على نتيجته أو بالأحرى على نتيجتها..

ها هي قد قطعت الشوط الأول في نجاحها.. مسحت دموع الفرح جزءًا من بكائياتها، وبيضت جزءًا من صفحة آلامها.. وتأكد لديها حلمها بمشيئة الله..

قالت بفخر وزهو:

- يوسف قدها وقدود..

فقد حاولت بعض النساء صرف تلك الفكرة عن ذهنها، فالثانوية لها همها وأعباؤها. وأبدين استنكارًا لتهورها فهي تحمّل نفسها وزوجها ما لا يطيقان، وقد تضطر إلى العودة من منتصف الطريق.. لكنها ركبت رأسها، وأقسمت أن تدخله الثانوية ولو باعت ملابسها، أو شحتت عليه.. فلا طريق إلى حلمها إلا من هنا..

دخل يوسف الثانوية، أخذت مستورة النشوة أيامًا، ومضت تخبر من لم يعلم أن يوسفها سيدخل الجامعة بعد ثلاث سنوات، ويصير أستاذًا.. والحاضر يعلم الغائب..

سريعًا ما جاء موعد المكدرات وأعلن الواقع القديم حربه الجديدة.

أخبرها يوسف مترددًا..

- 11 جنيه رسوم..

بلعت لعابها، واهتز عنقها كأنما سكرت من مقدار المبلغ.. ثم حاولت أن تخفي ذلك بإطراقة إلى الأرض ثم نفس عميق.. ثم انصرفت ثم استدارت عند الباب:

- تتدبَّر إن شاء الله.. شد حيلك إنت في المذاكرة..

باتت ليلتها تتقلب على جنبيها.. لا تجد من تبث لها همها، كادت تقول لنفسها يا ليتني سمعت كلامهن، ما لي والثانوية الزفت.. جلست على الفراش تفكر تحاول أن تضع الخطط وتفرز قائمة معارفها والوسائل المتاحة والنوافذ المفتوحة والمغلقة.. كلها مغلقة.. أعياها التفكير في أمر الرسوم ومستقبل يوسف المعرض للخطر.. وإن كان هذا يحدث في أول عام

له في الدراسة الجديدة فماذا بعدها؟ هل تسرعت في إدخاله؟ هل كان النساء بالفعل صادقات في وعظها؟

- لأ.. كلهم غيرانين وولاد......

تحدثت إلى نفسها في غضب.. ثم انكسرت ثم نزلت عن الفراش وألقت بنفسها إلى الأرض مهزومة.. ثم انخرطت في البكاء..

في الصباح كان قرارها الصعب للغاية، فبعد استخارة واستشارة انتوت أن تعاود بيع السمن من جديد ولو لفترة وجيزة.. وكانت قد توقفت عن تجارتها تلك لسنها، ولأن المحروس يوسف كان بدأ ينبت له شعر شاربه وصار لا يحب أن يرى أمه تبيع السمن والجبن.. لكنها تناست غضبه فهي تفعل ذلك من أجله، وأقسمت لو عاتبها لتضربنه بمداسها..

ولكي تضع نفسها وتضع يوسف أمام الأمر الواقع فكرت أن تستلف المبلغ كاملاً من روز، ثم ترده إليها على دفعات من بيع السمن..

فتحت صناديقها وجهزت عدتها.. دارت على البيوت.. لم تقبل نقاش الجارات أو عظاتهن، وكانت صارمة في طلبها.. فنزل الجميع على رغبتها.. وبادرت كل من تملك السمن والجبن بإعطائها ما عندها.. لم تكتف بعزبة الغنام بل خرجت إلى العزب المجاورة.. جمعت ما لم تكن تتوقع..

جهزت العدة في المساء ثم دخلت إلى حجرتها وصلت ركعتين ودعت المعين بالإعانة، وجلست على الفراش وجمعت ركبتيها حتى لامستا ذقنها..

- بقى حتلفِّ بالسمنة وإنت في السن ده يا مستورة؟

عبد البديع أتى الليلة مبكرًا ودخل إلى الحجرة مبكرًا.. فلم تجبه سريعًا بل جهزت ردًّا رطبًا يخفف عنها وعن العجوز:

- أنا لسه شباب يا خويا.. الدور والباقي ع اللي عضمته كبرت..

انتظرت أن يرد على مزاحها بمزاح كعادته عند الصفاء، لكنه كان أكثر هدوءًا هذه الأيام:

- معلهش يا مستورة..

سكتت.. الكلمة تسعدها لأنها تعرف أنه بذلك يقدر تعبها، وتحزنها لأنها تشعر بضعفه وطعنه في المشيب.. ألصقت راحتها اليسرى على اليمنى وألقت بهما تحت رأسها كوسادة.. واكتفت بهمّ يوسف..

خرجت في الفجر، وكانت على موعد مع المطر كعادتها، وكأن أعوامها كلها مطر.. ارتدت حذاء بلاستيكيًّا عندما يتخلله الماء يتحول إلى مركب.. مشت تدوس بحركة بهلوانية كأنها تتزلج على الطين..

رأت في نفسها خفة لم تكن تتوقعها، فهي تمشي بهذا الحمل رشيقة كأنها صبية في العشرين.. قالت:

- البركة من عنده.. يوضع سره في أضعف خلقه..

مرت على عشة عباس تهمهم بالأذكار دون أن تلتفت، ثم على كلاب الحاجر صابر دون وجل.. ثم وصلت المعدية، هنا انتابها الخوف ترددت.. تخيلت لو حدث و.. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وسمت وداست..

هنا انطلقت صفارة القدر لتعلن بدء شوط جديد..

ماذا حدث؟

حدث بالضبط ما خمنه القارئ الذي عرف بالاستقراء من خلال نحس مستورة الذي لن يفارقها إلا بعد أن يعلمها الأدب.. أن قدمها انزلقت

بحذائها المكوكي فجأة فترنحت بحملها الكبير، فسقطت في الماء سقطة مروعة وسبقها طستها سابحًا بما فيه.. صرخت ثم سكتت.. أخذت تتشبث بالحشائش على شاطئ الترعة خشيت الموت، فلما شعرت أن رأسها صارت فوق الماء، أتاها هاجس الجن الذي يلبس من ينزل الماء في هذا التوقيت الغريب.. صرخت مرة أخرى.. لم يسمعها سوى الشاب الذي كان علمها كيف تمر في أول مرة.. ولكنه اليوم سامحه الله جاء متأخرًا..

جلست تنتحب بشدة على شاطئ الأفندية والشاب يحاول تهدئتها، وهي لا تشعر بوجوده.. كان قد أخرج لها طستها بعد أن أفرغ حمولته في الماء، أما حلتها التي كانت موضوعة في وسط الطست فهانت عليها العشرة ورحلت مع الماء..

قررت أن تلحق ببيتها قبل أن تبزغ الشمس ويراها النساء على حالتها تلك فتصير حدوتة كل من هب ودب.. عادت إلى العزبة تحمل طستها فارغًا.. تعرج على رجلها اليمنى فقد أصيب فخذها، وتحاول أن تبعد ثيابها الذي التصق بجسدها.. ولجت إلى بيتها ولم تخبر أحدًا..

كل نساء العزبة بلا استثناء عرفن الخبر تفصيلاً، وربما عرفن أشياء لم تكن انتبهت لها هي أثناء الحادثة المروعة.. أما كيف؟ فلا يسأل نساء الغنامين عن كيف..

جلست في بيتها تهز جسدها حيرى على نفس الطريقة التي ترى بها الشيخ مصباح يقرأ القرآن، لا تدري ماذا ستفعل وللنساء عندها حقوق لا بد أن تؤديها، وليوسف رسوم لا بد أن تدفعها.. نهضت تقطع البيت جيئة وذهابًا.. ماذا تفعل..

في العصرية سمعت إحداهن تنادي، فقالت وهي تغمض عينيها بقوة لتستقبل الآتي:

- جالك الموت يا تارك الصلا.. جمالات جاية تسأل عن فلوسها.. صرفها يا رب.. يا رب..

خرجت إليها وكلها أسى وانكسار.. وتجهز أكوامًا من الأعذار.. فوجئت بالسيدة تعرض عليها حلة ملأى بالسمن:

- خدي دي يا عمة والحساب يجمع..

سكتت مستورة دهشة..

ترددت قليلاً ثم أخذت الحلة، ثم جذبت جمالات فقبلت رأسها.. فسحبت جمالات رأسها مستنكرة..

- أستغفر الله يا حاجة.. ليه بتعملي كده؟!

اقتدى بجمالات سائر نساء عزبة الغنام، عرفوا ما حل بمستورة، فرقّت لها قلوبهن، وبعضهن فعلن ذلك بأمر من أزواجهن.. وصارت مساعدة مستورة في أمر جمع السمن الذي ستذهب به إلى دمنهور قضية رأي عام.. وتعاطف معها الجميع لدرجة أن فاطمة نشرت القضية في عزبة صادق فتحمس لها النساء هناك أيضًا.. وأعطينها ولم يأخذن المقابل في حينها..

كادت مستورة تبكي من سعادتها بالانفراجة غير المتوقعة، وكانت تظن أنها ستموت من الكمد أو سيكون مصيرها السجن بعد ما حدث.. لكن بسهولة شديدة أطلق القدر صافرته ثانية ليعلن عن نهاية محطة لم تطل..

جهزت حالها وهي تتمتم بالدعاء سعيدة والدموع تترقرق في عينيها.. عرضت عليها حلاوتهم الخروج معها، فوافقت لكنها في الصباح لم تشأ أن توقظها..

ملأت مستورة طستها ثم غطته بالشكائر كإجراء أمني ضد التقلبات الجوية.. ثم همهمت بدعائها كإجراء أمني لا بد منه للتيسير والفرج والبركة..

انحنت على الطست ترفعه إلى رأسها.. لكن استوقفها خروج عبد البديع من حجرته يتوكأ على عصاه وهو لا يزال في خدر النوم.. انتصبت تستقبله.. ظنته سيطلب منها ثمن الدخان..

اقترب منها وهي تنظر إليه دهشة.. أخذ برأسها وقبلها بين عينها قبلة خدرتها وأشعلت بداخلها ذكرى أبيها، نظرت له مأخوذة.. قال لها بصوت خاشع ضعيف:

- ربنا يسترك يا مستورة زي ما سترتيني..

عجبت مستورة من حاله، فاغرورقت عيناها بالدموع، ثم أكبت على يده تقبلها:

- حسك في الدنيا يا حاج..

حملت طستها وساعدها عبد البديع.. ثم انفلتت خارجة وعبد البديع يشيعها بدعواته ونظراته، ثم ذهب ليتوضأ للصلاة لأول مرة منذ زمن طويل..

-38-

اتجهت نحو سوق دمنهور أولاً؛ حتى تضمن أنها ستبيع كمية مناسبة، ثم تتجه بما يتبقي إلى روز وجاراتها..

دنت من السوق تذكرت المرأة صاحبة القبقاب، ألم بها هاجس أنها ستراها مجددًا رغم مرور أكثر من عشر سنوات وربما تكون المرأة قد استعدت لها الآن، وستأخذ بثأرها.. رأت الزحام أمامها خفق قلبها.. تذكرت يوسف اشتعل حماسها، ضغطت على أضراسها، تفتعل معركة هي طرفاها، ولسان حالها يقول:

- يا قاتل يا مقتول..

من بعيد تفحصت النساء كأنها تبحث عن صاحبة القبقاب.. بالطبع لم تجدها فالسوق تغيرت تمامًا.. فبدت كأنها لفظت سكانها القدامى الهادئين مرة واحدة، ثم انشقت عن قطعان من الماعز البشرية تلهج بالمأمآت، اختلطوا ببعضهم كأنه يوم القيامة، ازدادت رهبتها، وقفت عند طرف

السوق متوجسة، فبدت كأنها على شاطئ بحر تجس عمقه، ثم لم تلبث أن ألقت بنفسها في الأعماق.

من وجوه البائعات، جذبتها بشاشة بائعة البهارات العجوز التي تجلس على عربة كارو على حافة ممشى السوق، فظننت بها خيرًا كما ظنت في صاحبة القبقاب من قبل، فاستأذنتها في أدب:

- صباح الخير يا حاجة.. عايزة أفرش جنبك على الأرض هنا.. معايا كم حتة جبنة عايز آكل بيهم عيش..

- ع العين والراس.. افرشي مطرح ما تحبي.. كلنا بناكل عيش..

تنفست مستورة الصعداء فقد نجحت المساعي الدبلوماسية دون اللجوء إلى عنف أو شتائم، بل حدثتها نفسها تؤنبها، ما كان هناك داعي للتذلل يبدو أن العجوز قد هابتها، فكانت تستطيع أن تجلس دون استئذان..

- باينلك مش من هنا..

- آني م الجلنجات..

وضعت مستورة طستها في أمان، وكشفت قطعت القماش عن سطح الطست، لتسمح للهواء بزيارة بضاعتها، ثم جلست على قطعة قماشية كانت تحملها معها، ثم أرسلت عينيها في السوق ترقب الغادين والراحين، تنتظر من يحمل إليها فرج الله..

بعد دقائق معدودة، جاء الفرج بثلاث نسوة شكلهن لا يطمئن مثل مستورة، الوسطى تحمل طستًا صغيرًا يبدو أن به بضاعة مثل بضاعة مستورة، جف حلق مستورة، ا فبلعت لترًا من لعابها تطفئ حر جوفها..

- استريا رب.. آني ما فييش حيل للقباقيب!

صاحت حاملة الطست من بعيد تعلن النفير، ولكن موجهة الكلام لبائعة البهارات العجوز..

- وكمان قعدتي واحدة مكاني يا..... ليه فاكرة السوق بتاع أهلك..

على عكس المرة الماضية تمامًا، في هدوء تام جمعت مستورة القماشة على طستها، لتعلن استعدادها التام للرحيل دون إراقة نقطة واحدة من الدماء أو الماء أو أي كلمة نابية، إذا أمرت إحدى النساء الثلاث بذلك. فالكثرة تغلب الشجاعة، والسمنة تغلب النحافة، والطول يغلب القصر.. وسامح الله صاحبة البهارات العجوز..

لكن على طريقة فتوات الحرافيش الكبار، انتفضت بائعة البهارات فجأة، فأسقطت عمود الشمسية المعلقة على رأسها بطول العربة، وسحبته في خفة كأنها محترفة في لعب العصا، وانتصبت على العربة وقد انقلبت ملامحها، وصاحت:

- وديني وما أعبد لو ما انجريتي من هنا يا بهانة يا حولة لأكسرلك دماغك إنت والمعزتين اللي جرَّاهم وراكِ..

الثلاثة تسمرن مكانهن.. بهانة والعنزتان.. ثم التفتت العجوز لمستورة باللهجة نفسها:

- وانت يا ولية يا بتاعة الجلنجات..

التفتت لها مستورة خائفة من الأمر الصادر:

- اترزعي مكانك.. وكلي عيش..

مستورة تسمرت مكانها، فقد صارت في حيرة من أمرها، فهي لا شك سينالها الأذى من أحد الطرفين.. إذا انصرفت خوفًا من بهانة أو جلست خوفًا من العجوز.. فانتظرت حتى ترى من المنتصر ثم تتبع أوامره، فقد تكون العجوز الطيبة بائعة البهارات مجرد بائعة كلام..

حسمت المعركة سريعًا.. وانسحب الثلاثة أمام نبوت العجوز.. وهن يهمهمن بكلام يشبه الشتائم والوعيد.. ثم التفتت العجوز ناحية مستورة المزعورة.. فانطرحت مستورة مكانها..

- دول حبة ..... بيلموا الرجالة حوالهم ويبيعوا حاجات تانية..

ثم التفتت العجوز عنها، ونادت امرأة مارة من أمامها:

- مش عايزة سمنة يا بت رقية..

- جبت يا حاجة من السوق من فوق..

- طيب لو حد عاز.. الحاجّة دي تبعي..

- حاضر.. أمال فين بهانة وشلتها..

- غورتهم..

- في داهية..

من وقت لآخر ترمق مستورة العجوز بإعجاب، فتندهش لتلك المعادلة التي زرعت في وجهها، فبعينيها السوداوين طيبة ورقة وحنان يخطف القلوب ويأسرها، وأيضًا بهما قوة وعنفوان يرهب القلوب ويفزعها.. لعل الزمان يعلم الإنسان كيف يحقق المعادلة، فيتحكم في رسم ملامحه..

عند الظهر كانت عرفت العجوز واسمها وقصتها ونما الود بينهما كعادة مستورة، وعند الظهر أيضًا انفضت السوق وقد باعت مستورة جل ما معها.. وانصرفت سعيدة وقد وعدت العجوز أن تأتي غدًا حتى لا تترك مكانها لل...

لكن مستورة لم تفي بالعهد معها، وإن لم تنو ذلك، فلم ترها إلا بعد سنوات.

حملت مستورة طستها وانصرفت في طريقها إلى روز وهناك أنهت مهمتها.. فقد جمعت من المال ما يسد دينها وأخذت من روز ما يكفي رسوم يوسف.. تنفست الصعداء، وألقت بنظرة إلى السماء كأنها تريد أن تحتضنها وقالت:

- أحمدك يا رب..

-39-

عادت إلى الغنامين يملأها النشاط وفرحة الانتصار على واقعها.. تتحسس من وقت لآخر موقع الجراب القماشي عند صدرها تطمئن على حصادها.. توقفت عند دكان عم حلمي فلم تجده ووجدت ابنته، فاشترت لعبد البديع «باكو دخان معتبر» ودسته في سيالتها كأنه هدية تستحق أن تخفيها لتكون مفاجأة..

دلفت إلى الشارع بهمة.. توجست من ذلك السكون غير الطبيعي.. بعيدًا رأت رجال الغنامين متناثرين أمام دارها.. على المصطبة، وتحت الشباك..

خفق قلبها، حثت الخطى..

استقبلتها فاطمة بصرخة قسمت ظهرها.. فألقت مستورة بالطست على ناصية الطريق.. وصرخت هي الأخرى لأول مرة في حياتها.. فقد عرفت على من تنطلق الصرخة القاسية من صاحبة الزغاريد.. فجوف فاطمة ينطق باسمه..

رحل الظل..

كشفت مستورة رأسها ولطمت خدها.. من شدة صدمتها وكادت تشق ثيابها.. عرفت حينها كم كانت تحب عشرته رغم ما قاست معه، وعرفت أن وجوده الخافت كان وجودًا.

أفاقت من صدمتها بعد أسابيع.. حلت من على رأسها العصابة السوداء وأبقت الطرحة والجلباب..

-40-

ازداد حرصها على يوسف فقد صار رجلها الوحيد.. في يوم الأربعين أجلسته أمامها، وصدعته خطبًا ومواعظ، وهو يهز رأسه مؤمنًا.. ولم يكن يوسف في حاجة لتذكرة أمه، فقد صار إسعادها هو همه الوحيد، بل لولا وجودها ما كان أوتي هذه الهمة، فمن ناحيتها قد أتت كل ما عليها، وفرغته تمامًا للمذاكرة وكانت على استعداد أن تشحت عليه كما قالت، على أن يصير كما حلمت..

في السنة الثانية أستأجرت له حجرة على سطوح أحد المباني في الدلنجات حتى لا يأتي إلى العزبة كثيرًا ويضيع وقته بين الأصحاب والأحباب.. وكانت تذهب إليه بين الحين والآخر ومعها «الزوادة» المتواضعة، والتي كان غالبًا بطة سوداني، وبرام أرز ولا تنسى الشوربة، فكانت تعبئها في زجاجات الزيت الفارغة..

قبل الامتحانات بأيام ذهبت إليه بالطعام، فلم تجده في الحجرة، ولم تجد أحدًا من زملائه، فافترشت ورقة جورنال على بسطة السلم، وانتظرت

عودته، فسطى عليها النعاس.. فأستلقت إلى الحائط وألقت راحتها تحت خدها، فنامت وعلا غطيطها.. وبعد دقائق استيقظت على هزة عنيفة ارتج معها البيت وسبت الزوادة.. أفاقت تلتفت حوالها تستكشف ما يحدث..

فجأة علا دوي الناس وصراخهم في المنزل وفي الخارج.. سمعت أحدهم يخرج مسرعًا ويقول صارخًا:

- القيامة قامت يا عبد العال.. القيامة قامت..

من فزعها ضربت زجاجة الشوربة بقدمها فانفجرت على السلم وطارت نصف البطة كأنها بعثت من جديد إلى أسفل السلم.. وانطلقت هي إلى الشارع مع المنطلقين تصرخ مع الصارخين، وقد تسارعت إلى رأسها كل أفعالها السيئة التي بالطبع لم أكتب عنها شيئًا هنا؛ لأنها لم تخبرني بها..

أخذت تستغفر عن كل ما فات.. وتجري وهي تبكي..

- سامحني يا رب.. سامحني يا رب..

ثم هدأت قليلاً عندما أخبرها بعض العقلاء أنه زلزال، فاستمرت في استغفارها.. لكنها لم تلبث أن تذكرت يوسف فانتفضت..

- ابني..

انطلقت نحو مدرسته الثانوية.. وأخذت تنادي باسمه في الشارع كالمجنونة.. قابلها يوسف عند ناصية الطريق.. احتضنها فدفنت رأسها في صدره، فهدأها باسمًا، ثم ألحت عليها أن يأتي معها إلى العزبة حتى تختفي الزلازل.. فليس هناك بيوت تسقط في الغنامين..

في هذه السنة تزوجت المدعوة «حلاوتهم» من عروس «لقطة» يملك حجرة في بيت أبيه.. ويريدها بملابسها لأنه لا يملك إلا ملابسه.. وافقت عليه

مستورة، وأسرعت في إنهاء إجراءات الزواج كي تستر ابنتها الحسناء.. بل ساعدت العروس بما استطاعت.. لتتفرغ ليوسف.. فمر هذا العرس أيضًا هادئًا لم تفرح به كما كانت تخطط.. لكن كل ذلك من أجل يوسف.. أو من أجل حلمها.

-41-

وقفتْ معه في فناء المدرسة الثانوية بالدلنجات تتطلع إلى وجوه التلاميذ كأنه يوم الحشر.. تنظر إلى المنادي في الميكروفون بالأسماء والدرجات.. ما هذه القسوة؟ بعض الأولاد يصرخون وأمهاتهم تبكي لبكائهم.. وبعضهم يقفز فرحًا وأمهاتهم تزغرد وسط الحوش المدرسي.. وهي تستغرب لِم لم يأت كل الأمهات مع أبنائهن..

زاد هذا المناخ من توترها.. فاليوم يعلن مصير الحلم.. وزاد أيضًا من توترها تشابه الأسماء وتداخل الأرقام وغمغمة المنادي في الميكروفون الذي لا يكاد يبين..

هي لا تعرف متى يكون الرقم عاليًا ومتى يكون منخفضًا، ولكن الطلبة وأمهاتهم هم الذين يعلنون عن ذلك بفرحتهم أو بلوعتهم.. فوقفت ترهف السمع، وترنو إلى يوسف مع كل نداء، وقلبها يخفق بشدة..

- نادوك ولا لسه يا يوسف؟

- لسه يامه..

أخذت تتلهى بربط الشال.. تتحرك في مكانها لا تستطيع الثبات.. تدور حول نفسها، ترمق المنادي بغيظ شديد..

- هيه يا يوسف؟

- لسه يا مه..

فجأة لمحت وجهه قد تلون..

- فيه إيه يا يوسف؟ إنت سقطت؟

- لأ نجحت..

- أمال ما لك؟

- هاخش حقوق..

ظنَّ أن الأمر سيصدمها أو على الأقل سيمر عاديًّا، فهو قد صدع رأسها بالصحافة والإعلام، وأنه سيصير كاتبًا كبيرًا، خاصة وأن الشيخ مصباح كان يؤكد ذلك.. لكنها زغردت للمرة الثالثة في حياتها واحتضنته بقوة.. وكادت تقفز في الهواء سعيدة.. فكل ما يعنيها أنه سيصير أستاذًا وسيسافر إلى مصر.. فليدخل بعد ذلك ما شاء..

دارت على كل البيوت ووزعت شربات.. ولم تنسَ أن تشفع كل كوب بـ:

- ده شربات الأستاذ يوسف.. رايح الجامعة في مصر..

رحلة يوسف هي الأخرى طويلة، لكن بدايتها جاءت مع نهاية رحلة مستورة، هكذا قانون الحياة، إذن لا يتسع لنا المجال لسرد سيرة الأستاذ فسامحونا على الإيجاز..

-42-

سافر يوسف إلى القاهرة.. اقتطعت من قوتها وأرسلت إليه ليتفرغ لدراسته، هي لا تدري إلى ماذا سيصير، فهو يشتت تفكيرها، يقول حينًا بأنه سيصير محاميًا وحينًا بأنه سيصير صحفيًّا، لا يهم، ما يعنيها أنه صار أستاذًا.. إذا طلب منها الآن أن تقطع من لحمها وتبيع.. لن تتردد..

مع الوقت ضاقت بها الحال أكثر فهو يستنزف ما تحصله أولاً بأول، ويفعل ذلك مضطرًا فهو يعمل في شهور الصيف الثلاثة ولا يستطيع أن يجمع ما يكفيه.. وأيضًا لا يستطيع أن يعمل أثناء الدراسة.

أرسل إليها في طلب مال من أجل الإيجار ومصاريف الكتب وغير ذلك.. وأكد الرسول أنه مسافر بعد ثلاثة أيام..

دارت حول نفسها لا تدري ماذا تفعل.. ذهبت إلى مصباح لكن رجال الحكومة كانوا قد سبقوها إليه فهو يصر ألا يأخذ بنصيحة أبيها بترك الكلام في السياسة..

عادت إلى دارها قررت أن تبيع الراديو العتيق.. بحجة أنها ستشتري تليفزيون كسائر الخلق.. لكن لم يعد له ثمن..

كعادتها في المآزق ألقت بنفسها على الأرض.. وانخرطت في البكاء والدعاء.. ثم نامت..

أيقظها صوت جار لها في الساعة الثالثة قبل الفجر -أقسمت لي على ذلك- سمعت النداء.. استغربت.. لفّت شالها على رأسها.. خرجت فإذا به حامد عبد الرشيد جارهم يناديها؛ لأن زوجته تلد ولا يعرف ماذا يفعل في هذه الساعة، وكانت إحدى المدعيات المبالغات أخبرت حامد أن العمة مستورة ولّدت أكثر من امرأة.. وهذا لم يحدث بالطبع.. فقط هي حضرت مع قابلة بير العسل وهي تولد زمزم، وكان حضورها قدرًا.. ولم تتدخل في ولادة زمزم إلا أنها حاولت تهدئتها.. هذا كل ما في الأمر..

- ربنا يهدك يا صفية.. بتعملي من الحبة قبة..

همهمت بها مستورة، فحالها لا يختلف كثيرًا عن حال حامد، فهي أيضًا لم تكن تعرف ماذا عليها أن تفعل.. سكتت قليلاً ثم قالت:

- طيب روح وأنا جاية وراك..

عساها إن تأخرت عليها ولدت وحدها، أو تجرأت غيرها وأخرجتها من المأزق.. بعد حين لفت شالها على رأسها وسارت ببطء متجهة نحو بيت حامد.. استقبلها النساء استقبال الخبراء المخضرمين عندما يدخلون مكانًا أهله في ورطة ولا يحلها غيرهم..

أمام هذا التشريف الذي يدعو إلى الغرور، كادت تصدق أنها طبيبة نساء وتوليد، ولم يكن أمامها سوى أن تقرر قرارها وأمرها إلى الله.. فزوجة حامد

تصرخ متعسرة ولا تستطيع أن تدفع بجنينها خارج سلة المهملات المحبوس فيها.. وهذا قليلاً ما يحدث عند نساء الفلاحين، فالولادة عندهن أيسر من صناعة حلة طبيخ.. فبعضهن كن يلدن وهن في الحقل أو وهن يخبزن أمام القرن، وبعضهن يلدن وهن يسرن في الطريق يتسامرن.. وبعد الولادة يستأنفن المسير..

دخلت حجرة المرأة مسرعة كأنها تهرب من النساء قبل أن يسألنها أي سؤال قد يفسد هيبتها وهيئتها.. طلبت المطالب العادية التقليدية التي يعرفها كل النساء.. ماء ساخن وفوطة وقطعة خشب ناعمة تضعها المرأة بين أسنانها وسكين أو مقص..

أجبنها النساء مسرعات فكونها تطلب؛ إذن هي تعرف جيدًا ماذا تصنع.. نظرت مستورة للمرأة تتلوى أمامها وتنازع كأنها تدفع الموت.. أشفقت عليها ورق قلبها.. ثم تشجعت، فاستجمعت خبرة سنين رأت فيها الوالدات وسمت الله وضغطت على أضراسها.. وبدأت..

ارتعشت يداها تعرفت على المكان بعد ثوان.. أدركت ما عليها فعله.. والمرأة تنازع وعليها أن تستغل قوة المرأة قبل أن تخور.. فأشارت إليها بأن ترفع مؤشرات حزقها أكثر وأكثر..

والمرأة تستجيب واثقة أن هذا هو الحل الوحيد.. استدارت مستورة تمسح يدها بالفوطة كي تستطيع المواصلة.. سمعت صرخة الصغير خلفها.. وعليه انطلقت الزغاريد في الدار.. وعليه فهي خبيرة في أمر التوليد.. وعليه ظلت مستورة دهشة من تلك الحفاوة بها فهي لم تفعل شيئًا..

أعطاها أبو الطفل ما في جيبه حينها، وزودها بكيلة قمح.. امتنعت عن قبولها في البداية فهي قد جاءت مساعدة منها لا أكثر.. لكن مع إغراء المال

الذي يحتاجه يوسف، وإلحاح حامد الشديد، خاصة أنه ذكر أن ذلك هدية بسيطة لا تليق بها، ولكن لا يملك غيرها.. فقبلت وأفهمته كذبًا أنها لولا خشيتها أن يكون رفضها شؤمًا على الوليد لما قبلت..

ظلت مستورة تتابع الولد أيامًا فتزور المرأة بين الحين والآخر.. داعية الله أن يمد في عمر الولد، فإن مات فستكون هي السبب، وإن لم تكن كذلك..

صح الطفل، وتلت تلك الولادة ولادة ثم ثالثة ثم عُرفت مستورة بوظيفة الداية.. فكانت بين الحين والآخر تخرج لتوليد إحدى السيدات وتعود بما يجود به أهل البيت فيساعدها ذلك في تدبير أمر معيشتها واعتبرته باب رزق جديدًا يسره الله لها من أجل المسكين يوسف بدلاً من بيع السمن والجبن الذي لم تعد تستطيع القيام به..

-43-

دخل عليها فجأة في منتصف الأسبوع.. فزعت فالامتحانات على الأبواب.. ولكنها لما رأت البشر في عينيه تهللت..

- خيرًا يا يوسف..

ابتسم ولم ينطق ودسّ يده في حقيبته السوداء وأخرج لها صحيفة صغيرة.. وأشار إلى اسم صغير كتب ببنط أسود.. خطفت الصحيفة من يده.. قربت الاسم من عينيها الواهنتين عرفته كأن الاسم صورته.. انتصبت كمن مسها جنون.. أطلقت زغرودتها الرابعة وتشبثت بعنقه الطويل تحتضنه وتقبله..

رقصت مستورة في بهو الدار وأخذت تدور حول نفسها وهي تبكي من فرط السعادة.. اندفعت إلى الشارع وفي يدها الصحيفة.. نادت صفية أمينة نشر سرها، أرتها اسم الولد واسم العائلة.. كلا لم يعد ولدًا.. قد أخذ اللقب عن جدارة وصار أستاذًا.. هرولت إلى الشيخ مصباح الذي عاد من أسره، أرته اسم يوسف لم يتُهْ منها فهي قد حفظت مكانه، بل تستطيع أن ترسمه على الورق لو طلب منها..

تحينت أسبابًا واهية كي تري النساء اسم يوسف الذي أنار الصحيفة، وتدعي ما لم يدعه يوسف نفسه من الأهمية الكبيرة الذي صار يمثلها في القاهرة..

أخبرها يوسف أنه سيحصل على نحو 500 جنيه مكافأة على هذا التحقيق.. المسكينة لم تتعود تلك الفتوحات القدرية.. اهتز رأسها على جزعها كالسكرانة.. وأخذت تردد:

- أحمدك يا رب.. أحمدك يا رب..

قد يكون يوسف يبالغ في الأمر كي يسعدها.. أيًا كان الأمر اقترضت من الشيخ مصباح إلى أن يأخذ يوسف أول مكافآته من الصحافة.. صنعت وليمة لرجال العزبة ودعت كبراءها.. لو كان بيدها حينها لأتت بكل نساء العزبة وعلمتهن القراءة والكتابة ليرين اسم الأستاذ ويقرأن كلامه المكتوب في الصحيفة، فالكلام لا شك يأخذ بالألباب ولا شك يبكي العيون ولا شك كلام موزون.. فقط لا بد أن يكون بعيدًا عن السياسة..

- ما فيش صحافة بعيد عن السياسة يا مستورة..

بلعت الجملة وقالت لا داعي لتعكير فرحتها.. دارت توزع الطعام على الحضور وتستمع إلى ثنائهم منتشية وتضيف إلى معلومات الحضور ما لم يعلمه الحضور وما لم يعلمه يوسف شخصيًا..

كانت تود أن تدعو زينات.. لكن -مع الأسف- كانت زينات في هذا الحين قد غادرت العزبة إلى أهلها بعد وفاة زوجها مهنا محروقًا بفعل فاعل في أحد الغيطان..

بالفعل بعد أسابيع أرسل لها يوسف مبلغ 500 جنيه بالتمام والكمال، بسطتهم أمامها على الحصير غير مصدقة.. عدتهم مرة واثنتين وثلاثة.. ما الذي يحدث لمستورة؟ قبّلت المال ورقة ورقة وأخذت تبكي.. ردت كل ما عليها من ديون.. وكست فاطمة وحلاوتهم وأولادهن.. وجادت على من حولها حتى يشعر الجميع بالنعمة التي صارت فيها بسبب أستاذها..

ظل نجم يوسف في صعود.. في خلال سنتين كان قد شق طريقه على أفضل ما يكون.. بالطبع في حياته تفاصيل كثيرة يطول بها المقام.. لكن مستورة أغلقت باب التفاصيل حتى ما تبقى من قصتها صارت عناوين عريضة.. كلها تحكي عن السعادة والحياة..

عاشت مع يوسف النجاح خطوة خطوة تتابع أخباره وتنشرها وتنشر تفاصيل غير صحيحة مائة بالمائة.. وصفية تردد عند أذنها:

- مبروك عليك يا أم الأستاذ..

ظل الأستاذ بعد أن أنهى دراسته وتفرغ لعمله في الصحافة بعدة أعوام يعطي لمستورة كل ما يجنيه من عمله ولا يدخر شيئًا مطلقًا.. تعثر كثيرًا وسقط كثيرًا لكنه كان ينهض سريعًا، كما تعلم من أمه، ولم يكن يخبرها من تفاصيل حياته في القاهرة غير كل ما يفرحها..

ترك لها الحرية كاملة في الأموال التي تأخذها تتصرف بها كيف شاءت، فصنعت بها كل ما كانت تشتهيه كأنها تنتقم علنًا من أيام الفقر والضيق.. فأعادت بناء الدار على أفضل ما يكون، وحجت بيت الله مرتين..

صارت معظم أوقاتها تستمع إلى سورة يوسف عبر الكاسيت لقارئها المفضل الشيخ المنشاوي.. أو من الشيخ شبانة الذي صار نجمًا في المكان.. لكنه لم يتكبر أن يأتيها كلما أرادت..

زفت بنفسها عبير بنت فاطمة ورقصت بين السيدات وغنت «يا حمام ياللي ع البني»، ثم كان يوم عيدها يوم زواج يوسف فدعت زمزم وروز وأهلهما بل وذهبت للعجوز بائعة البهارات لكنها اعتذرت لضعف الصحة، فأهدتها مستورة نصيبها في الوليمة وقبلت رأسها..

صنعت في ليلة زفافه صنائع عجيبة فقد خدرتها نشوتها، وأتت بأفعال الصغار والكبار والعقلاء والمجانين.. فمن يرها حينها يقل إنها شربت حتى ثملت.. فرقصت وطبلت وضحكت وزغردت وجرت وحكت وجثت على إحدى ركبتيها وفردت ذراعيها وضربت براحتها اليمنى على اليسرى وهي تفردهما بشكل مائل وتغني أغاني الفلاحين والبدو.. جذبت يوسف من جوار عروسه وأخذت تراقصه حتى نال منها التعب منالأ.. وصورها حفيدها الأصغر علاء فيديو لا نزال نشاهده حتى اليوم..

في آخر الليل كان أقعدها الروماتيزم فاستسلمت أخيرًا وجلست وسط النساء، واكتفت بهز جزعها والتمايل مع أغانيها الشعبية، أو تغني باللوحة كما تفعل البدويات فينقطع نفسها في منتصف الأغنية، فتقوم فاطمة برتق أغنيتها بزغرودة ساحرة.

وظلت مستورة من زفاف إلى زفاف تعبئ كاساتها التي أفرغها زمانها ثم جاد وأغدق.. فلم تعد تخشى نفاذًا، فقد أدركت أن جرعة من الآلام يزيل أثرها جرعة من الصبر..

ثم جاء موعد زفافها والبداية التي تمنتها منذ البداية..

سكن المطر.. توقفت السيارة في عزبة الغنام.. ضغطت «Ctrl s» ثم « Alt F4» ثم «Shotdwon» ثم طويت اللاب ونزلت من السيارة.. سبقني ركاب السيارة يتقدمهم الشيخ إبراهيم إلى الأمام.. إحدى السيدتين تبكيان، والأخرى تقول لها:

- كفاياك يا زمزم..

إذن هي زمزم صاحبتها جاءت في زيارة، حاولت أن أتطلع إلى ملامحها في فضول، مضيت خلفهم أريد أن أعرفهم بنفسي فأنا حفيد صاحبتهم..

لفتني وجود سيارة يوسف بجوار المسجد، فعصفت ذهني سريعًا أتذكر الموسم الذي أتى به.. مولد النبي.. عيد الأم.. كلا إنه عاشوراء.. نظرت للسيارة ثانية وتبسمت بداخلي.. وتذكرت الحذاء..

سعيت خلف الشيخ إبراهيم أدركتهم أول الشارع لكن قبل أن أحدثهم، لفتني تجمع يتكرر كثيرًا لأهل العزبة عند الناصية.. لكن صمتهم غريب مخيف.. عرفت بعد تفكير أن السيدة مستورة بالفعل مريضة، وليست تدعي كما كنت أظن، وزمزم جاءت لزيارتها.. العيون تقول لي: أدرك جدتك.. أسرعت.. ولجت في الشارع لا أريد أن أسأل رجلاً عن سبب وجومه أو امرأة عن سبب نحيبها..

لكن فاطمة أجابت دون أن أسأل.. فأرسلت زغرودة قوية تشق الفضاء.. تصلبت في مكاني فالزغرودة جريحة مخنوقة بعبرة.. أدركت أن فاطمة تنفذ الوصية.. ثم انطلقت خلفها زغاريد أخرى تزف مستورة لعريسها الأخير..

ظلَّ الشيخ شبانة يذهب كل جمعة يقرأ عند قبرها بسورة «يوسف» لمدة ثلاثة شهور، رغم أنه كان قد أنهى دينه حسب ما قالت.. لكن ربما كان قد غالطها في الحساب فأنبه ضميره.. ثم واصل يوسف ذلك الأمر كلما جاء ليزور قبرها.. كل عام..

تمت بحمد الله

الدلنجات/ بحيرة – 2010م

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة -والتي لم يمنحها للبعض- وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبَّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات، نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع ..

لذلك،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك -بعد الانتهاء منه- فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمناً أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.

مرِّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل !!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دَارُ دَوِّنْ

في حظيرته .. على ركن من الفراش جلست القرفصاء ترترقب .. دفع باب الحجرة بقوة ولهفة الجائع إلى عشاء سمين.. فبدا لها ثوراً بديناً في الأربعين من عمره.. رنت إلى ملامحه القاسية النهمة التي لا تعرف حباً ولا وداً فارتعدت وخفق قلبها وبلعت لعابها.. ثم أطرقت وسلّمت نفسها ذبيحة..

"مستورة"

هي الطفلة التي ودّعت الصاحبات، والشابة التي أحبّت وفقدت، والعجوز التي صارعت شياطين الزمان .

هي قصة امرأة من جيل آخر..

إنها رواية حقيقية ستمس أوتار قلبك..

تصميم الغلاف | أحمد فرج



